السنة الثالثة عشرة

(ابريل — يونيه ١٩٤٦ — جمادى الاولى — رجب ١٣٦٥ العدد الثانى)

صحيفة دار العلوم

م ١٩٣٤

تصدرها "جماعة دار العلوم"

كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب عتانه

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بناى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
الاستاذ بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشا
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

فى رسالة الغفران لأبي العلاء

بقلم

السباعى بيومى الأستاذ بدار العلوم

— ٢ —

ثانيا — مواطن الخيال وخصبه فيها

نسج المعرى رسالة غفرانه على الخيال لحمة وسدى ، وإن وقعت جمهرة تخيلاته من النوع البيانى الغالب على أدبنا العربى ، ذلك النوع الذى لايعدو تفسير ماهو موجود تفسيرا توضحه الصورة المبنية عادة على الاستعارة والتشبيه ، وهو وإن كان الغالب على أدبنا العربى فإن القادرين عليه ليسوا بالكثرة الكثيرة من الأدباء ، لأنه يتطلب دقة ملاحظة واشتعال ذكاء يدرك بهما الأديب الميزات الروحية للاشياء ثم يصوغها صوغا ينفى عنها الجمود ويحمل فيها الحياة .

فمن ذلك تخيله ماتخيل فى أنهار الجنة الجارية بالماء أو اللبن أو العسل أو الخمر وماتستلزمه هذه الأخيرة حين الشرب من أباريق وكئوس وسقاة وندمان ، فقد استمد ذلك من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية الواردة بمعناها أو تفصيلا لهذا المعنى ، والتى لسهولة تناولها ليست فى حاجة إلى أن نسوقها للاستشهاد .

ومنه تصوره رغبة أبى ذؤيب الهذلى أن يحلب ناقة ويشوب لبنها بالشهد كما كان يتمنى ذلك فى دنياه ، فانه أخذه من قوله فى حبيبته :

وان حديثا منك لو تعلمينه جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل

مطافيل أبكار حديث نتاجها تشاب بماء مثل ماء المفاصل

ومنه التجاؤه يوم الموقف إلى الشعر يتقرب به إلى رضوان وزفر من خزان الجنة ، وإلى حمزة بن عبد المطلب حين لم يجده ذاك ، وكذا طلبه الى جارية الزهراء ان تجيزه الصراط محمولا على ظهرها ويداه ممسكتان من فوق كتفيها بيديها على صدرها ، فانه أخذ الشفاعة بالشعر مما كان يفعله الشعراء من التقرب به إلى الملوك والسادة والأعيان ، كما أخذ تلك الصفة فى الحمل من الحملة المعروفة بالزقفونة فى مثل قول الجحجلول من أهل كفر طاب إحدى قرى الشام .

صلحت حالى إلى الخلف حتى صرت أمشى إلى الورى زقفونه

ومن قول الآخر فيها وهو الذى تمثل به حين طاب إلى الجارية ماطلب

ست إن أعياك أمرى فاحمليـنى زقفونه

ومنه تخيله المأدبة التى أرادها أن تقام فى الجنة لكل من كان فى دنياه ذا أدب وعلم ، وكذا حفلة الشرب والغناء التى أراد أن تعمر بكل من كان من عشاقهما فى الحياة الأولى ، فان كلتيهما لم تكن إلا عملية مكرورة معادة لمثلها فى الحياة الدنيا ، ولكن لدى أرباب النعمة والجاه والسلطان و السخاء الذين تعودوا البذل فى مآدب الأكل ومجالس الشراب ، موغلين فى السرف ومغرقين فى الافتنان .

ومنه تخيله ماتخيل من الأعمال التى نسبها إلى الجنى حين قرض على لسانه قصيدتيه الرائية والسينية فى ألوان من التمرد والشيطنة مما اعتاد الأنس أن ينسبوه الى الجنان ، وفى أحوال الرجم على حسب ما أدلت به عنه الشرائع ونطق القرآن ، ولكل من القصيدتين دلالة على ما كان بنفس المعرى من قدرة ذات سعة فى هذا الخيال ، وإليك من كل مثلا على كثرة مافيهما من أمثال .

قال من الأولى فى وسوسة الجنى لموسى عليه السلام :

وقد عرضت لموسى فى تفرده بالشاء ينتج عمروسا وفرفورا

لم أخله من حديث ماووسوسة إذ دك ربك فى تكليمه الطورا

وقال من الأخرى فى حمله زوجا على سوء الظن بعرسه حتى طلقها ثم ندمه بعد ذلك .

ونخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوءظن حديس

نقول لاتقنع بتطليقة واقبل نصيحا لم يكن بالدسيس
حتى إذا صارت إلى غيره عاد من الوجد بجد تعيس
تذكره منها وقد زوجت ثغرا كدر فى مدام غريس

إلى غير ذلك من التخيلات البيانية الكثيرة التى كان آخرها فيها ذاك الذى ذكرناه آنفا آخر البحث الأول من رغبته أن يعتريه من الفتور عقب الشرب ماكان يعترى أخا النّدام،وخلعه على نفسه من ذلك صورة لم يكن ليصل إلى مثلها أمثال النواسى فى خوالى الأيام .

على أن فى الرسالة من الخيال الابتكارى الذى يعمد فيه الأديب الى تأليف مجموعات جديدة من العناصر المخزونة فى ذاكرته كما يؤلف البستانى الطاقة الجميلة الرائقة من أزاهير بستانه ، مواطن ذات شأن ، وقبل أن نعدد من هذه المواطن أشياء ، ينبغى أن نصرح هنا بأن الرسالة فى موضوعها جملة من هذه الخيال الكلابترى على الصورة التى عرضناها ونحن نذكر أشخاصها ومتناولها ، فانّ تصوره رجلا يصعد به الى السماء ليرى نعيم الجنة وجحيم النار ، وتخيله الحديث عجبا عن هذا الرجل مع شخصيات يفرض تلاقيه بها فى كلتيهما ، غير ناس أن يصور يوم الموقف وموقفه منه موازنا بمواقف المحشورين ، وكذا تصوره جنة للعفاريت المؤمنين ، وتنزله ببعض منازل الجنة لمن تسومح بأدخالهم فيها ، ليس إلا صورة مبتكرة ألفها خياله من عناصر اختزنتها ذاكرته ، سابقا بها دانتى الايطالى بثلاثة قرون وملتن الانجليزى بستة ، هذين الروائيين اللذين لم يتصورا أكثر مما تصور ، ولم يفضله الأول فى جحيمه ولا الثانى فى فردوسه ، على ماخلف لكليهما من أثر يقتفى ومثال يحتذى ، وهذى بعض أمثلة من هذا الخيال الابتكارى التأليفى الذى بثه أبو العلاء فى ثنايا رسالته .

من ذلك تخيله الغناء يقع من إوز فى الجنة قد انتفضن قيانا كواعب يغنين بجميع الألحان حين يقول « ويمر رف من إوز الجنة فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر الأمر ومن شأن طير الجنة أن يتكلم فيقول له ابن القارح ماشأنكن ؟ فيقلن ألهمنا أن نسقط فى هذه الروضة فتغنى لمن فيها من

شرب فيقول على بركة الله القدير فيتنفضن فيصرن جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة وبأيديهن المزاهر وأنواع ما تلتمس به الملاهى فيعجب وحق له العجب وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلت عظمته ، إلى آخر ما انساق فيه من حديث عنهن استغرق صفحات .

ومنه ماتخيله فى حور الجنة اللائى يخرجن من ثمارها حيث يقول « ويمر ملك من الملائكة فيقول له ابن القارح أخبرنى عن الحور العين اللاتى يقول فيهن الكتاب الكريم — إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين — فيقول الملك،هن على ضربين ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الاعمال الصالحة ، فيقول وقد عجب مما سمع، فأين اللواتى لم يكن فى الدار الفانية وكيف يتميزن من غيرهن فيقول الملك اقف أثرى فيتبعه فيجىء به إلى حدائق لايعرف كنهها إلا الله ويقول له خذ ثمرة من هذا الثمر فاهصرها فان هذا الشجر يعرف بشجر الحور فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة أو ماشاء الله من الثمار فيهصرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان فتقول من أنت ياعبد الله فيقول أنا فلان بن فلان فتقول إننى أمنى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة فعند ذلك يسجد إعظاما لله القدير ويقول هذا كما جاء فى الحديث، أعددت لعبادى المؤمنين مالا عين رأيت بله ما اطلعتم عليه — ، إلى آخر ما ساق فيه الحديث عن حور الثمار وأن من الثمار من تخرج منها أربع حوريات لاواحدة ولا اثنتان ولا ثلاث كما حدث فى مواضع أخريات .

ومنه تخيله أن الله أعطى بشارا الأعمى فى دنياه عينين فى آخرته لينظر بهما ما ينزل به من نكال ، وأنه إذا أغمضهما لكيلا يرى فتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، وكذا تخيله إعطاءه سبحانه عوران قيس الخمسة عيونا لم ير أحسن منها فى عيون أهل الجنان .

هذا ولم تعدم الرسالة أن يتعرض فيها للخيال الاستيحائى الذى يستعرض فيه الأديب الأشياء فينطقها أو ينطق عنها ، فيحسن التعرض لما أراد

من هذا حديثه عن الثور والحمار الوحشيين وهو فى نزهته للصيد مع عدى بن زيد حيث يقول « فاذا نظر إلى صوار ترتع فى رياض الفردوس صوب الرمح لأخنس ذيال ، فاذا لم يبق بين السنان و بينه إلا قيد ظفر قال الثور أمسك رحمك الله فانى لست من وحش الجنة التى أنشأها الله سبحانه ولم يلن فى الدار الزائلة ، ولكنى كنت أروض فى بعض القفار فمر بى ركب مؤمنون قد أكرى زادهم فصرعونى واستعانوا بى على السفر فعوضنى الله بأن أسكننى فى الخلود ، فيكف عنه الشيخ، ويعمد إلى علج وحشى ما التلف عنده بمخشى ، فاذا صار الخرص منه بقدر أنملة قال الحمار أمسك ياعبد الله فان الله أنعم على ورفع عنى البؤس ، وذلك أنى صادنى صائد بمخلب وكان إهابى له كالسلب . فباعه فى بعض الأمصار فاتخذ منه غرب شفى بمائه الكرب وتطهر بنزيفه الصالحون ، فشملتنى بركة من أولئك فدخلت الجنة أرزق فيها بغير حساب ، فيقول الشيخ . فينبغى أن تتميزن ، فمن كان منكن دخل الفانية فما يجوز أن يختلط بوحوش الجنة ، فيقول ذلك الوحشى لقد نصحتنا نصح الشفيق وسوف نمتثل ما أمرت »

ومنه حديثه عن أسد القاصرة حيث يقول « ويمر ابن القارح فاذا هو بأسد يفترس من صيران الجنة وحسيلها فلا تكفيه مائة ولا مائتان فيقول فى قلبه لقد كان الأسد يفترس الشاة العجفاء فيقيم عليها الايام لايطعم سواها شيئا ، فيلهم الاسد أن يتكلم وقد عرف ما فى نفسه فيقول ياعبد الله أليس أحدكم فى الجنة تقدم له الصحفة فيأكل منها مثل عمر السموات والارض يلتذ بما أصاب فلاهو مكتف ولا هى الفانية ، كذلك أنا أفترس ماشاء الله فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ولكن تجد من اللذة كما أجد بلطف ربها العزيز ، وأتدرى من أنا؟ أنا أسد القاصرة التى كانت فى طريق مصر فلما سار عتبة بن أبى لهب يريد تلك الجهة وقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، ألهمت أن أتجوع له أياما وجئت وهو نائم بين الرفقة فتخللت بين الجماعة اليه فافترسته وأدخلت الجنة بما فعلت .

إلى غير هذين من ألوان الخيال الاستيحائى، و به و بسابقيه الا بتكارى والبيانى

يكون أبو العلاء قد جمع فى رسالته هذه بين ألوان الخيال جميعا فى أبدع تصوير وأجمل أداء .

وبعد فلعل من تمام هذا المبحث أن نذكر النبذة التى أنكر فيها الاستاذ العقاد على أبى العلاء الخيال فى رسالة الغفران ثم نعقبها بالكلمة التى ردفيها الدكتور طه حسين عليه هذا الانكار .

قال الاستاذ العقاد بعد أن أعجب بالرسالة وأن أحدا لم يسبق أبا العلاء الى مثلها .

« أما أن ينظر اليها كأنها نغمة من نغمات الوحى الشعرى على مثال ما نعرف من القصائد الكبرى التى يفتن فى تمثلها الشعراء ، والقصص التى يخترعونها اختراعا أو ينظر اليها كأنها عمل من أعمال توليد الصور والباس المعانى المجردة لباس المدركات المحسوسة ، فليس ذلك حقا ، وليس فى قولنا هذا غبن للمعرى أو بخس لرسالته الغفران ، كلا ، ولا هو مما يغضب المعـــرى أن يقال هذا المقال فى رسالتـــه » .

وقال الدكتور طه حسين بعد كلام فيما كتب الاستاذ العقاد عن الرسالة فى غير ناحية الخيال . —

ولكن الذى أخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه فى فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقا فى رسالة الغفران ، فان هذا نكر من القول لا أدرى كيف تورط فيه كاتب كالعقاد ؛ نعم إن العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه فهو بعد أن أنكر الخيال على أبى العلاء عاد فأثبت له منه حظا قليلا ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئا غيرى ؛ أما أنا فلن أنخدع له ، فهو ينكر على أبى العلاء أن يكون شاعرا عظيم الحظ من الخيال فى رسالة الغفران « بشه سوده » كما يقول العامة ، وهل يعلم العقاد أن دانت إنما صار شاعرا نابغة خالدا على العصور والاجيال وائقا من إعجاب الناس جميعا ، بشىء يشبه من كل وجه رسالة الغفران أستغفر الله ، إن من الاوربيين الآن من يزعم أن شاعر فلورنسة قد تأثر بشاعر المعرة قليلا أو كثيرا ، وما الخيال ؟ أما اذا كان ملكة تمكن الكاتب أو الشاعر من أن يخترع شيئا من لا شىء أو يؤلف أشياء لا ائتلاف بينها ، فلم يكن أبو العلاء على

حظ من الخيال، لانه لم يخترع فى رسالة الغفران شيئا من لاشىء، ولم يؤلف بين متناقضات ولكننا نعلم أن علماء النفس لايسمون هذه الملكة خيالا وانما يسمونها وهما، وهم ينبئوننا أن الخيال لايخترع شيئا من لاشىء وإنما يستمد صوره ونتائجه من الاشياء الموجودة، يؤلف بينها تأليفا غريبا يبهر النفس ويفتنها، واذا كانوا صادقين وأحسبهم صادقين، فحظ أبى العلاء من الخيال فى رساله الغفران لاحد له.

ليس لابى العلاء حظ من الخيال ! وإذن فماذا يلذنا من رسالة الغفران ؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء. وذكر الجنة والنار وما فيهما ؟ أليس لان خيال أبى العلاء الخصب القوى قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفا غريبا لذيذا. لم يكن أبو العلاء ملزما أن يخترع الشعراء والعلماء والجنة والنار. فدانت لم يخترع فرجيل ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الأشخاص الذين لقيهم، وإنما استمدهم جميعا من الأدب القديم أو من الدين المسيحى، ومع ذلك فهو صاحب خيال، وخياله هذا مصدر مجده الخالد، لاتقل إن حظ أبى العلاء من الخيال قليل، بل قل إن حظه من الخيال عظيم جدا قيم جدا، خليق بالخلود، لأنه الخيال المنتج حقا، هو الخيال الذى تجده عند دانت، والذى تجده عند أناتول فرانس بنوع خاص، وما أقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبى العلاء، فليس بين الرجلين إلا فرق واحد هو أن تشاؤم الكاتب العربى محزن مظلم، وتشاؤم الكاتب الفرنسى مبتسم مشرق، ومن عريب الأمر أن من الفرنسيس من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذى يظلم عليه العقاد أبا العلاء، فقد انخدع بعض الكتاب الفرنسيين بكثرة مايروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان وأهل القرون الوسطى، فقالوا إن الرجل لاشخصية له وإنما هو يجمع آثار غيره لا أكثر ولا أقل، ويكاد العقاد يقول هذا فى رسالة الغفران، لأن أبا العلاء ملأها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة وما أخذ عن رجال الدين، ولكن غير العقاد خليق أن يتورط فى مثل هذا الخطأ، فسر البلاغة ـ ولقد كدت أقول الاعجاز ـ أقوى وأظهر فى رسالة الغفران من أن يغفله أديب كالعقاد.

السباعى بيومى

أثر الحضارة العربية في التربية (1)

للأستاذ عبد الحميد حسن

تنشد جميع الأمم الحضارة وتسعى لتظفر منها بالحظ الاوفى وتبذل جهدها فى استكمال مقوماتها . ولا نبعد عن الحقيقة إذا فهمنا أن الحضارة هى هذا النهوض الذى تعمل الشعوب على تثبيت دعائمه فى مختلف المظاهر الحيوية للفرد والجماعة ، وهذا النظام الذى يكفل للانسانية عيشة راضية موفقة .

ولا بد لهذه الحضارة من دعائم لاقامة بنائها وتوطيد اركانها . وقد تختلف الشعوب فيما تتخذ لحضارتها من أسس ، وفيما تختط من سبل ولكنها فى الغالب ترمى إلى الحياة الرغدة والى خير الفرد والمجتمع .

والحضارة الحديثة هى ميراث كونته أمم مختلفة ، وبناء تعاونت شعوب وأفراد على إقامته . وأن أوفر الأمم والأفراد حظاً هم الافذاذ الذين قويت هممهم وصحت عزائمهم على الخير ، واتجهت مواهبهم إلى نبيل الغايات .

وان بناء الحضارة هو صورة للانسان وجهوده ، وفيه مقوماته من جسم وعقل وخلق . فللحضارة مظاهرها وزخارفها ، ولها أسسها العقلية وألوانها الخلقية وطابعها الذى به تتميز . ومن أنواع الحضارة ما ليس له الا الجسم والمظهر الزائف السريع الزوال ، ومنها ما له دعائم قوية من العقل والخلق وهو أثبت الأنواع وأقواها ، وهو الذى تبقى آثاره على مرور الأيام .

واذا أردنا أن نصور ما عسى أن يكون للحضارة من مقومات تشبه ما للانسان

---

(1) محاضرة القيت فى قاعة يورت بالقاهرة فى ١٥ مارس سنة ١٩٤٦

من مواهب وصفات ، فانا نجد ذلك فى التربية العقلية والخلقية . فالصلة اذن وثيقة بين الحضارة وعناصر التربية . ولاغرابة فى ذلك ، فقد عرفنا أن الحضارة من عمل الانسان وفيها تتجلى صفاته . وأرسخ الحضارات قدما وأقواها شأنا ما قام على العقل الراجح والخلق القويم .

وهناك ناحية أخرى لها فى الحضارة وفى التربية أثر وهى هذه الدعائم الثلاث التى تقوم عليها الحياة الصحيحة وهى : الحرية والعدالة والمساواة ، ولقد كان لحضارة العرب حظ عظيم من هاتين الناحيتين وهما ناحية التربية والثقافة ، وناحية هذه الدعائم الثلاث التى عليها بقاء الأمم وأمنها وسعادتها ، فقد كان شعارهم فى كل ما فتحوا من بلاد وأمصار أن ينشروا الثقافة ويقيموا الدعائم للحضارة . وسنجمل القول فى آثارهم فى التربية قبل الاسلام وبعده :

كانت فطرة العرب وبيئتهم وحياتهم وصفاتهم العقلية والخلقية فى العصر الجاهلى هى الصفحة الأولى الناصعة التى خطت عليها أصول حضارتهم . ومن الشعوب من رزقوا حظا من الاستعداد يجعل نصيبهم وافراً من النهوض والحياة الصالحة حينما تتاح الفرص وتتوافر الاسباب . وقد فطر العرب على الحرية واكسبتهم بيئتهم الصحراوية صفاء فى الذهن وسرعة فى الخاطر ودقة فى الملاحظة ، وكان لهم بحكم العنصر من المواهب مالاخوانهم الكلدانيين والبابليين والفينيقيين الذين سجل لهم التاريخ آثارهم وحضارتهم ، غير أن العرب فى الجاهلية لم تتح لهم فرصة من خصب الارض وثروتها ، فلم تكن حضارتهم مؤسسة على ماتغل الارض من ثروة زراعية أو معدنية ، أو على شاهق المبانى وضخم المؤسسات ، بل كانوا كالعصامى الذى لا عدة له الا مواهبه التى أمده الله بها ، ولا سند له الا سعيه وجده ، ولا عون له الا عقله الذى يسترشد به ، وذكاؤه الفطرى الذى يهديه الى طرائق الحياة . وقد اكسبهم كل هذا ميلا الى عيشة الاستقلال والاعتزاز بالشجاعة والفروسية .

وقد أشار « توماس كارليل » فى كتابه « الابطال » فى وصف العرب الى شىء

من هذا فقال . لا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها ، الا أن يكونوا أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي الفكر » .

وقال أيضا : « والحق أقول : لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها من شدة حزمهم وقوة ارادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذا وأبيكم رأس الفضائل وذروة الشرف الباذخ » .

وكانت تربيتهم لاولادهم تسير على غرار هذه الصفات فكانوا ينشئونهم على نهجهم ويعلمونهم ركوب الخيل والرماية ويغرسون فيهم شيم الكرم والمروءة والوفاء والنجدة ، ويملئون قلوبهم وعقولهم بنصائحهم .

وكانت مدرسة الحياة هى معهدهم . وكتاب الطبيعة هو مصدر معارفهم ، فنظروا فى السماء ونجومها ، ولاحظوا السحب ومهاب الرياح . وانطلقت السنتهم بالبيان الرائع والشعر الرصين ، وأثر عنهم فى أقوالهم ما يعد دروسا نافعة فى الحياة .

فمن ذلك ما قال علقمه بن لبيد يوصى ابنه :

« يا بنى اذا نزغتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من اذا صحبته زانك ، وآن خدمته صانك ، وان اصابتك خصاصة مانك ، وان قلت صدق قولك ، وان صلت شد صولك ، وان مددت يدك بفضل مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وآن سألته اعطاك ، وان سكت عنه ابتداك وان نزلت بك احدى الملمات آساك .

وقال اعرابى لرجل :

« أى أخى ان يسار النفس أفضل من يسار المال ، فان لم ترزق غنى فلا تحرم تقوى ، فرب شبعان من النعم ، عريان من الكرم ، واعلم أن المؤمن على خير ، ترحب به الارض وتستبشر به السماء ، ولن يساء اليه فى بطنها وقد أحسن على ظهرها .

وقالت اعرابية توصى ابنا لها أراد السفر .

أى بنى اجلس امنحك وصيتى وبالله توفيقك فان الوصية اجدى عليك من كثير عقلك . أى بنى ، اياك والنميمة فانها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين ،

واياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا وخليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضا الا كلمته حتى يهى ما اشتد من قوته ، واياك والجود بدينك والبخل بمالك ، واذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا يتفجر ماؤها ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فان المرء لايرى عيب نفسه »

وغير ذلك كثير مما يدرس الآن دراسة أدبية لا علمية . ولا تهذيبية . ولو درست هذه الاثار من الناحية التربويه لاتضح أن فيها كثيرا من الاصول النافعة التى جادت بها هذه العقول التى نشأت فى كنف الفطرة .

يتضح من هذا أن العرب فى الجاهلية على سذاجة حياتهم وأميتهم كان لهم حظ من الثقافة العقلية والخلقية بأسلوب طبيعى خال من مظاهر الدرس والبحث ، ولم تكن تربيتهم فى معهد أو مدرسة بل فى رعاية الاباء والامهات ، وفى أحضان البيئة والحياة العملية وهم وان لم يكن لهم نصيب من الثقافة المنظمة ذات الطابع الحديث بدراسة العلوم والفنون ، كان لهم حس مرهف وذكاء فطرى وصفات كريمة سجلها التاريخ . وكان بيانهم الرائع من أعظم مفاخرهم ، يتناقلونه شفاها دون قلم أو قرطاس . فيراعهم هو اللسان ، وقرطاسهم هو صفحات عقولهم . ولهم فى الجدل وقوة الحجة مقدرة رسخت فى دمائهم ، وكانت مجامعهم وأسواقهم منتديات للنقد وللأدب . فهم وان كانوا أميين من حيث القراءة والكتابة لم يكونوا أميين فى عقولهم أو تجاربهم . بل كانوا على جانب محمود من الثقافة الطبيعية الحيوية . ذلك لان الامية شىء والثقافة شىء آخر ، فكم من أمى له عقل المثقفين ، وكم من مثقف ثقافة تقليدية لا يعد الا فى مستوى الاميين .

**

هذه هى المرحلة الأولى أو المدرسة الأولى للتربية العربية . وهى مرحلة نستطيع أن نشبهها بالمرحلة الأولية من التعليم . ولعل فيها من الأسس والأصول ما تستبشر به التربية الحديثة التى تعتد بالحرية وتغتبط بالمخايل الصافية للفطرة السليمة

فلننظر إلى حالة العرب حين انتقلوا الى المرحلة الثانية من مراحل التعليم ودخلوا المدرسة التى وضع الاسلام أسسها

فى هذه المرحلة انتشر الاسلام وامتلأت بتعاليمه قلوب العرب ، وامتزجت فضائله بنفوسهم . وقد ثبت الاسلام أصول العدل والحرية والمساواة والديمقراطية. وهناك ظاهرة واضحة فى الفتوح الاسلامية . وهى أنها لم تكن استعمارا ، بل كانت ترمى الى نشر الدين وإشاعة فضائله لمن شاء أن يعتنقه عن رضا واقتناع ولم يكن المسلمون يعملون على محو الأجناس بل كانوا يمتزجون بها بالمصاهرة . وللاسلام فى أصوله كثير من المرامى الاصلاحية والنواحى التى تنهض بالثقافة وترقى بالعقول وتهذب النفس . فقد نشر أصول الحياة الصالحة واعتد بالمواهب الانسانية وغذاها من مناهل الثقافة . وفوق كل هذا جاء رافعا لواء العلم مشجعا على طلبه ، وتجلى ذلك فى كثير من ايات القران الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وأعماله وأوامره .

فمن ذلك قوله تعالى . يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات — هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولو الالباب — يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يتذكر الا اولو الألباب

وقال ﷺ . لاحسد إلا فى اثنين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . وروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فاذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والاخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . كلا المجلسين على خير . وأحدهما أحب الى من صاحبه ، أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه ، فان شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما المجلس الاخر فيتعلمون الفقة ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلما ، وجلس الى أهل الفقه

وقال عليه الصلاة السلام . لا تمنعوا العلم أهله فان فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم . وقال عليه الصلاة والسلام : يحمل العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

وغير ذلك من الشواهد كثير وهذا التشجيع العلمى ظاهرة واضحة فى الدين الاسلامى ، وهو الذى حفز المسلمين من العرب وغيرهم على الاهتمام بالتعليم ومعاهده

وكتبه وما يتصل بذلك . وكان كل هذا أساسا لهذه النهضة العلمية المباركة التى عمت العالم . وأحيت ما كان قد طمسه الزمن وطال عليه الأمد وغفلت عنه العقول

وكانت الخطوة الاولى التى بنى عليها النهوض التعليمى فى الاسلام هى محو الأمية فالدين نفسه يتطلب معرفة القراءة ، وأول ما نزل من القران الكريم ايات فيها الاشادة بالقراءة وبالتعليم .

(اقرأ باسم ربك الذى خلق،خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم)

وفى غزوة بدر كان فداء الاسرى أن يعلم كل منهم عشرة من الاطفال القراءة والكتابة

وقد عنى المسلمون بطلب العلم يحفزهم اليه هذا الدافع الدينى ، وكان نهجهم فى ذلك متدرجا طبقا لتدرج حضارتهم ، وامتداد ملكهم ، وكثرة تجاربهم واتساع افقهم الحيوى ، وساروا فى ثقافتهم العلمية فى مراحل :

«١» فكانت المرحلة الأولى هى تفهم القران الكريم وحفظه ، والقران هو أساس الدين وعماد مافيه من تشريع وارشاد فى شئون الحياة للفرد وللاسرة وللمجتمع ، وهو أساس ثقافى شامل ، وقد تفرعت من دراسته علوم شتى استلزمها فهمه ، كاللغة والقواعد النحوية والبلاغة والتاريخ والجغرافيا ومشاهد الكون وغير ذلك من شعب الثقافة . ونشأ عن هذا أيضا تدوين العلوم وتأليف الكتب المختلفة فى كل فرع منها . وكان الهدف لكل هذا هو معرفة أصول الدين وأحكامه وتفهم ما فيه بما يكفل الخير والاصلاح

ولعلنا اذا تلمسنا سببا لهذه الدراسة الشاملة للقران الكريم والاشتغال بالعلوم المتعددة التى يتضمنها تفهمه فانا نجد أن هذا أشبه بطريقة تجميع مواد الدراسه التى بنيت على مبادىء «هربات» أو بطريقة المشروع وهى من أحدث طرق التعليم وتستخدم الان فى مصر فى المدارس النموذجية بالقاهرة وهى طريقة يختار لها موضوع أساسى يتخذ محورا للدرس ثم يترك للمتعلمين البحث فيه من شتى نواحيه على حسب ما تتجه اليه عقولهم وما يمت الى الموضوع بصلة ولهذه الطريقة فوائدها التى أوضحها علماء التربية

سار المسلمون فى هذه المرحلة من الدراسة سيرا مقرونا بالهمة والنشاط وكانت أساليبهم فى البحث والتفكير تجرى على الطرق الاستنباطية والقياسية فكانوا يتتبعون الجزئيات للوصول الى القاعدة الكلية ، ثم يعودون فيطبقون هذه القاعدة على الاحوال الجزئية . وقد ظهر ذلك جليا فى علوم كثيرة وأخصها بحوثهم فى الفقة الاسلامى وأصوله ونظرياته العامة ولهم فى ذلك من الدقة المنطقية ما يقدره المشرعون فى عصرنا الحديث

(٢) المرحلة الثانية أو الوثبة الثانية

وفيها اتجه المسلمون فى دراستهم وبحثهم الى العلوم الكونية وهى الفلسفة والرياضة والعلوم وما الى ذلك مما يسمى الان فى بعض المعاهد العلوم الحديثة وأن ما تشبع به المسلمون وما أيقظه فيهم الاسلام من حب البحث والدرس حفزهم الى أن يبحثوا فيما خلفه اليونان وغيرهم من فلسفة وعلوم وليس فى الدين الاسلامى ما يمنع ذلك مادام بعيدا عن المساس بالعقيدة أو افسادها فان البحث وراء الحقائق الكونية أو العلمية ومعرفة ظواهر الطبيعة وأسرار ماخلق الله كل هذا مما يحث عليه الدين الاسلامى . فان للاسلام الى جانب ميادين الدين والعبادة ميدانه المدنى والسياسى والاجتماعى

وفى القران الكريم الكثير من الايات التى تتضمن الحث على النظر والتفكير قال تعالى « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق من شىء » - « أن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تدل على حقيقة ثابتة وهى أن الأسلام كان منشطا للحياة العقلية مشجعا على البحث والتفكير مثبتا أصول الاجتهاد فى تطبيق الأحكام الدينية ، منكراً المحاكاة العمياء ، رافعا من شأن العقل الانسانى . وقد شد أزر الفلسفة وغذاها ، لأن قواعده فطرية لاتنافى المنطق والتفكير السليم .

لهذا عكف المسلمون على الاشتغال بما ترك اليونان وغيرهم من علم وفلسفة ، ونشطوا ترجمة ذلك ، وكافئوا المترجمين بالمال الكثير .

نشط ذلك أيام أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين، ثم جاء الرشيد حفيد المنصور فبهر ملوك أوربا بما وصل اليه العرب من علم وثقافة واختراع. وجاء المأمون فأتم ما أسسه سابقوه من الخلفاء. وفي عهده ازدادت العناية بالفلسفة وبالبحث والجدل. وكان للعلماء عنده شأن ومكانة عالية. وكانت مجالس المناظرة والجدل في عصره من أخص الظواهر التي تدل على النشـاط والبحث، والتاريخ الأدبي حافل بذلك.

وقد سار خلفاء المسلمين وملوكهم على هذا النهج من الاهتمام بالعلم والترغيب في طلبه. وظهر الاشتغال بالفلسفة وبالعلوم الكونية في جميع مظاهرها واضحا في جمعية أخوان الصفاء التي ألفت في القرن الرابع الهجري. وقد حوت رسائلهم أنواعا من العلوم الحسية والعقلية والفلسفية. وتعتبر هذه الرسـائل صورة من المنهج الشامل للثقافة العربية في نواحيها العلمية والفنية والفلسفية.

وقد وصلت الثقافة العربية غايتها في القرن الرابع الهجري. وكان مركز هذه الثقافة الشاملة العالمية مدينة بغداد عاصمة الدولة العباسية ومنها كان ينبعث نور العلم والحضارة، وفي كنف خلفائها نضجت الذخائر العلمية القديمة ووضعت أسس الثقافة التي سطعت على العالم وأيقظت الانسانية.

وكان العرب في تلك العصور هم حملة مصباح الثقافة، وقد أخذ ضوءه يشع ويسطع ويعم الممالك الشرقية، ثم انبعث نحو الغرب مجتازا افريقية إلى المحيط. ومن هذا المضيق الذي لايزال يحمل اسما عربيا وهو مضيق «جبل طارق» عبر العرب الى الأندلس فوطدوا في هذا الأقليم ملكهم، ونشروا حضارتهم وثقافتهم، وظهرت فيه مواهبهم، وكان للفن الجميل شأن في عهدهم، تدل على ذلك آثارهم الرائعة التي لاتزال ماثلة في ربوع الأندلس للآن.

وقد سار العرب في أسبانيا على غرار ما كان في بغداد من العناية بالعلم والاهتمام بنشر الثقافة واذاعة العرفان، وكان للاتصال العلمي وثيقا بين المدينتين العظيمتين بغداد وقرطبة، وكان العلماء وطلاب العلم يتنقلون بين المشرق والمغرب رغبة في التعلم والتعليم.

وقد عرف ملوك أوربا للخلفاء فى الاندلس مثل ماعرفوا لخلفاء بغداد ، فارسل ملك الروم لعبد الرحمن الناصر الهدايا الثمينة ، وكان لاستقبال رسله حفل رائع فى قرطبة سجلت كتب الأدب وصفه الممتع .

وقد تقاطرت وفود الاوربيين على الاندلس ، وعظم نزوح طوائفهم إليها للأخذ عن العرب ، وكان العرب على عادتهم يذيعون العلم ولا يكتمونه ، ويسيرون فى ذلك على النهج الديمقراطى الذى طبعت به حضارتهم وحياتهم . وفوق هذا قد امتزجوا بأهل الاندلس امتزاج مصاهرة وائتلاف ، فكان كل هذا داعيا إلى الاطمئنان والنشاط العقلى .

**

سارت عاصمتا المشرق والمغرب بغداد وقرطبة تتنافسان فى الاستزادة من العلم وتثبيت دعائمه ، وكانت هذه المنافسة خيرا على العالم . ثم ظهر منافس ثالث وهو مدينة القاهرة ، وكان مظهرها فى الفنون أقوى منه فى العلوم . وقد نشطت هذه العواصم الثلاث وسارت سيرا حثيثا تحدو الثقافة بعنايتها وتبذل للعلم ورجاله معونتها لجنى العالم من ذلك أطيب الثمرات . وكان لهذا النشاط أثره فى النهضة العلمية فى العالم بعد أن خمدت جذوة العلم والبحث فى العصور الوسطى فى أوربا . والفضل فى هذا يعود الى العرب ونهضتهم وماجاء به الاسلام من مبادىء شجعت العلم ونشطت التعليم وأشاعت الثقافة وأعادت للعقل حريته ومكانته .

لم يقتصر النهوض العلمى ، الذى ايشع بعناية العرب ، على البحث والدرس ، ولا على ما كشفه المسلمون من أصول علمية وفنية ، بل أن العرب عملوا على نشر العلوم والثقافة بوسائل وهى :

معاهد العلم — التأليف — المكتبات

أما المعاهد العلمية فكانت فى أول الامر فى المساجد التى كانت تقام فيها حلقات العلم ومجامع الارشاد ومنابر الخطابة الدينية والسياسية والاجتماعية . ثم أنشئت الكتاتيب بجانب المساجد لتعليم القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة .

وقد أنشأ العباسيون المدارس يتعلم فيها الخاص والعام . وقد أمر هارون الرشيد

أن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها. وجاء المأمون فتابع الخطا، وازداد العلم والتعليم فى عهده نشاطا وذيوعا حتى شملت المدارس المملكة الاسلامية جميعها على سعتها.

واهتم العباسيون كذلك بترجمة العلوم واعداد التراجمة فأنشئوا فى بغداد مدرسة ألسن لتربية المترجمين تحت نظارة طبيب نسطورى ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم فيها مجانا ستة آلاف تلميذ.

ولم يرتض المأمون أن يكون تقدم الفنون منوطا بسخاء الخليفة بل رصد لذلك أموالا ووقف عليها أوقافا دائمة فتحت بها مدارس فى جميع المملكة، وأحضر لديه كثيرا من علماء اليونان والفرس والكلدانيين وأباح لهم الالتحاق بالوظائف الحكومية، ومحا بذلك ما كان شائعا من أبعاد الاجانب عن مناصب المسلمين.

وقد سار ملوك الاسلام من الفرس والسلاجقة والاتراك على هذا النهج فاهتموا بانشاء المدارس. ومن أهمها المدرسة النظامية والمدارس الكثيرة التى أنشأها المماليك فى القاهرة.

ومنها أيضا المدرسة المستنصرية فى بغداد وهى من أعظم آثار المستنصر بالله الخليفة العباسى. وأنا نسوق ماجاء فى وصفها من كتاب « تراث الاسلام » فى المقال الذى وضعه « الفردجيوم » الخاص بالفلسفة والالهيات:

« ولكن أعلى الجامعات الاسلامية ذكرا وأرفعها مكانا هى المستنصرية، وقد أسست ببغداد سنة ١٣٣٤ م

وقيل أنها فاقت كل ما سبقها فى الاسلام من دور العلم فى مظهرها الخارجى وأبهة زخارفها وفاخر أثاثها واتساع بنيانها ووفرة أوقافها. وكانت تضم أربع مدارس مستقلة للشريعة، تقوم كل منها بتدريس مذهب من المذاهب الاربعة.

ويتولى أمرها استاذ يعهد اليه بخمسة وسبعين طالبا (فقيها) يلقنهم العلم دون أن يسألوا على ذلك أجرا ويتقاضى الاساتذة الاربعة » رتبا شهريا كما يتقاضى كل طالب دينارا من الذهب كل شهر.

وكان للمدرسة ـ الى جانب هذا ـ مطبخ غنى يمد الاساتذة والطلاب بجرايات يومية من خبز ولحم.

ويقول ابن الفرات ان المستنصرية كان بها مكتبة عامرة بالكتب النادرة فى شتى العلوم قد رتبت بحيث يسهل رجوع الطلبة اليها و يتيسر نسخ المخطوطات للراغبين فى نسخها ، وكانت ادارة المكتبة توزع على الطلاب مايحتاجون اليه من ورق وأقلام وتزودهم فوق ذلك بالمسارج ومايلزم لاضاءتهـا من زيت الزيتون كما كان بالمسكن صهاريج خاصة بتبريد مياه الشرب وساعة حائط فى بهو المدخل، ولاشك فى أنها كانت نوعا من أنواع الساعات المائية ، كما كان فى داخل المعهد حمام للطلاب و بيمارستان عين له طبيب كان عليه أن يحضر كل صباح ليصف للمرضى ماتتطلبه حالتهم من دواء. كما ضمت المدرسة مخازن كبيرة قد زودت بجميع أنواع الطعام والدواء ،

(المكتبات)

وهى مظهر من مظاهر النتاج العلمى والاهتمام بالتدوين ، وعون على البحث والتحصيل ، ولها الآن مكانة فى معاهد العلم على اختلاف درجاتها .

وقد عنى المسلمون بانشاء دور الكتب العامة والخاصة ، فانشأ الرشيد بيت الحكمة فى بغداد ، وأنشأ الحاكم بامر الله الفاطمى دار الحكمة فى القاهرة ، وكانت مكتبة قرطبة تحوى كثيرا من الكتب فى شتى المباحث العقلية والنقلية التى الفها أو ترجمها العرب فى مختلف أنواع المعرفة . وكان الحكم بن عبدالرحمن الناصر مغرما بجمع الكتب ، وكان يبعث التجار الى الاقطار ويزودهم بالأموال لشرائها ، وكان كذلك يجمع فى داره المهرة فى صناعة النسخ والضبط و التجليد للقيام بما تتطلبه الكتب من اعداد و نقل

كل هذا كان فى تلك العصور التى لم تنتشر فيها الطباعة ولم يكن للمؤلفين و الدارسين من وسيلة الا الكتابة والنسخ بالايدى . ولا تزال طائفة من هـذه المخطوطات العربية التى لم تخرج إلى أيدى القراء بعد دليلا على هذه النهضة العلمية المحمودة ونرجو أن تتجه الهمة الى اظهار هذه الذخائر حتى تتم الاستفادة منها .

سارت هذه النهضة العربية الاسلامية تنشر العلم والثقافة وتحارب الجهل الذى كان مخيما على العقول . وقد نبعت من بلاد العرب وعمت المدن الاسلامية فى البصرة والكوفة ثم بغداد وانتشرت فى الممالك الشرقية ثم عبرت البحار الى بلاد الاندلس فازدادت ازدهارا بعد أن تجمع للعرب كثير من ألوان العلم والمعرفة وقد أخذ عرب

الاندلس هذا التراث الشامل ودرسوه وتنافسوا فى البحث فيه، حتى فى عصور الانقسام واستقلال بعض الحكام باطراف البلاد وأجزائها كان تناقش هؤلاء الملوك فى العلم وتنشيطه عظيما بل كان هو الوسيلة لتثبيت النفوذ واقرار السلطان. وكان ذلك فى الشرق والغرب معا.

ومن الاندلس سطعت أنوار العلم والمعرفة على أوربا فأخذ أهلها عن العرب نظام الجامعات ووسائل البحث والدرس ورأوا فى اللغة العربية المعين الصافى لشتى العلوم ووجدوا أن العرب قد نقلوا مافى الثقافات القديمة اليونانية وغيرها ومحصوا ذلك وهذبوه وأضافوا اليه ما يصيفه العالم الدارس وبذلك ظفرت أوربا بهذه الذخائر العلمية فكانت عونا لها فى نهضتها.

ومن هذا يتضح أن العرب كانوا أبطال تلك الأيام وأن فضلهم على الثقافة عظيم بما أذاعوا من علم، وما أقاموا من مدارس وجامعات، وما ألفوا أو ترجموا من كتب وما أنشئوا من مكتبات، وما قاموا به من حفز التفكير وايقاظ العقول وتشجيع البحث والاهتمام بالتربية الاستقلالية، وكانوا وحدهم أساتذة العالم عدة قرون. وأن جامعات أوربا لم تستغن عن تدريس مانقل اليها من مؤلفات العرب إلا فى الازمنة الأخيرة.

وقد قال العلامة سيديو:

« ان الكنوز الادبية العظيمة التى أوجدها العرب فى ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمى واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلا على نشاطهم الفكرى، وتؤيد الرأى القائل بان العرب هم أساتذتنا فى كل شىء »

ننتقل بعد ذلك إلى الجانب الفنى من التربية وهو الطرق التى كان العرب يتبعونها فى بحثهم العلمى والاساليب التى كانوا يسلكونها فى التعليم، وهو الجانب الذى تعنى به معاهد التربية ويهتم به رجالها الان.

أما طريقة البحث فقد كان اساسها فى العلوم هو التجربة والسير على الاسلوب المنطقى، وقد ساروا على هذا النهج فى علومهم النقلية منذ بدءوا يشتغلون بالعلوم الشرعية فى فجر نهضتهم. وان أروع وادق ما استحدثوا ذلك العلم الذى وضعوه على غير مثال سبق وهو علم الأصول «اصول الفقه» وإن الذين يتتبعون مسائله وبحوثه

المتنوعة يرون فيه لونا دقيقا من ألوان البحث العلمى ويجدون من القواعد العامة والاساليب الاستنباطية والاستقرائية والنظريات العلمية فى كل مذهب من مذاهب أئمة المسلمين، مايدل على عبقرية ومنطق سليم.

وقد ساروا على هذا النهج فى بحوثهم العلمية والكونية والفلسفية، وكانت التجربة أساس نتاجهم العلمى

ويقول الاستاذ جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب:

يقول الاوربيون ان «بيكون» أول من قال بالتجربة والترصد اللذين هما ركن المباحث العلمية، ولكن الانصاف يقضى بأن نعترف بأن الفضل فى ذلك للعرب وحدهم. وقد أبدى هذا الرأى مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب

وقال العلامة سيديو:

إن من أهم ما اتصفت به جامعة بغداد منذ البداءة هو روحها العلمى الصحيح الذى كان سائدا لها فى استخراج المجهول من المعلوم والعلل من المعلولات، وفى عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والترصد.

وقد كان العرب فى القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهج المجدى الذى اقتبسه علماء أوربا بعد زمن طويل فكان عاملا فى استكشافاتهم المفيدة.

هذه هى طريقة العرب فى الدرس والبحث، على حين كانت الطريقة فى أوربا هى دراسة الكتب والاقتصار على رأى المعلم.

واما طريقتهم فى المواد الادبية والنقلية فهى ان يعد الاستاذ درسه ويكتب الموضوع ثم يلقيه على الطلاب بعد الحوار والشرح وهم يكتبون عنه. ثم تكون هذه الدروس كتبا وامالى تنتشر بين الناس فى علوم مختلفة. ولدينا الان طائفة من هذه الكتب والامالى

وبعد ان تكونت طائفة صالحة من المؤلفات اصبحت الطريقة ان يتخير الاستاذ كتابا يدرسه مع طلابه ويشرح لهم موضوعاته ويحاورهم فى مسائله. وبعض الاساتذة يكتبون تعليقات على الكتاب الذى يشرحونه تسمى «الحاشية»، وبعضهم يضيف الى الحاشية شروحا واضافات تسمى «التقرير»، وقد طبع من كل هذا أنواع لاتزال الى الآن فى الكتب الازهرية.

وكانت هذه الطريقة متبعة في المعاهد العلمية فى الشرق وفى الازهر ، ولا تزال بقية منها ليست بالقليلة فى المعاهد الدينية بعد أن دخلت فى دورها النظامى الجديد

ومن حسنات هذه الاساليب ذلك الحوار الذى يشبه حوار سقراط ، وان كان قد تحول فى عصور الهبوط العلمى الى جدل حر فى قليل الجدوى يدور حول الألفاظ والعبارات فى كثير من الاحيان .

. . .

أما النواحى الفنية فى التدريس وأصوله فلهم منها نصيب له شأن : لهم فى علم النفس وعلم الاخلاق مايعتبر أساسا صالحا لفهم الطبيعة الانسانية وطرق تهذيبها وتربيتها ووسائل كسبها للعلوم . ولهم أيضا بحوث كثيرة فى التربية الخلقية وفى العناية بالفضائل الانسانية وطرق غرسها فى نفوس الناشئين . ولهم كذلك طرق عملية فى تخير مناهج الدراسة وفى وسائل التدريس وأساليبه .

. . .

ففى النواحى النفسية نجد بحوثا لها قيمتها فيما كتبه ابن سينا فى كتابه الشفاء وفى مختصره وهو كتاب النجاة

فقد أوضح فى المقالة الخاصة بالنفس فى كتاب النجاة كثيرا من الاصول النفسية فتحدث عن النفس باعتبارها جنسا وقسمها ثلاثة أقسام :

النباتية والحيوانية والانسانية موضحا الفروق بين هذه الاقسام .

ثم قسم النفس الحيوانية إلى محركة ومدركة ومن المحركة : القوة النزوعية والشوقية والقوة الشهوانية والقوة الغضبية

والمدركة قسمان : قوة تدرك من الخارج وهى الحواس الخمس ، وقوة تدرك من الباطن ، ومن هذه مايدرك الصورة ومنها مايدرك المعنى . ثم تكلم عن الحس المشترك وهو قوة تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة فى الحواس الخمس .

وتكلم أيضا عن الخيال وعن النفس الناطقة وعن القوة النظرية التى من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة — وهذا هو إدراك الكلى ، وعن الفرق بين إدراك الحس وإدراك التخيل وإدراك الوهم وإدراك العقل — وهذا شبيه بالادراك الحسى والادراك العقلى فى كتب علم النفس الآن .

وتعرض أيضا الى طرق اكتساب النفس الناطقة للعلوم والى اختلاف المتعلمين في استعدادهم وفيما لهم من ذلك بحكم الخلقة .

وفي رسائل إخوان الصفا كذلك بحوث نفسية لها قيمتها عن قوى النفس .

وهي خمس قوى حساسه هي الحواس وخمس قوى أخرى وهي : المتخليلة — المفكرة - الحافظة — الناطقة (أو المعبرة) — الصانعة . وتفصل الرسائل انتقال المحسوسات من المتخيلة إلى الحافظة لتبقى إلى وقت الحاجة ، ثم تتناولها القوة المعبرة وتعبر عنها ثم تقيد بالكتابة . وفيها أيضا بحوث في النفس الناطقة والشهوانية والغضبية ، وكذلك في الحاس والمحسوس وفي الحس والاحساس وفي كيفية الادراك في الحواس المختلفة وكيفية وصول آثار المحسوسات إلى القوة المتخيلة وكذلك في طاقة الانسان من المعارف ، وفي بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها وفي أمراض النفوس وعلاجها ، إلى غير ذلك من مختلف البحوث التي تعتبر أساسا صالحا للتربية العقلية والخلقية .

وتمتاز هذه الرسائل بأنها تسوق كل هذا في أسلوب مقرون بضرب الأمثلة وبالايضاح الذي يقرب الحقائق للاذهان مما يدل على مهارة واضعيها ومقدرتهم التعليمية .

وهذه الرسائل تعتبر صورة لمنهاج ثقافي لمرحلة ثانوية تجمع كثيرا من ألوان المعرفة التي نحرص على أن يتعلمها شباننا في عصرنا الحاضر .

وقد لفت نظري في هذه الرسائل موضوع هو أشبه بمنهاج دراسي مصور أو مشفوع بوسائل الايضاح .

فقد جاء في احدى هذه الرسائل ما يأتي :

« ذكروا أنه كان ملك من الملوك حكيم من الحكماء سيد من السادات وكان له أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه . فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم ليقومهم قبل إيصالهم إلى مجلسه لأنه لا يليق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب والمرتاضون في العلوم المتخلقون بالأخلاق الجميلة المبرءون من العيوب .

فرأى من الرأي الرصين والحكمة أن يبني لهم قصرا على أحكم ما يكون من

البنيان ، فأفرد لكل واحد منهم مجلسا وكتب كل علم أراد أن يعلمهم إياه فى جوانب ذلك المجلس ،وصور فيه كل شىء أراد أن يهذبهم به . ثم أجلسهم فى ذلك القصر ، وأجلس كل واحد منهم فى حصته المعدة له ووكل بهم الخدم وقال لأولئك الأولاد : انظروا إلى ماصورت لكم بين أيديكم واقرءوا ما كتبت فيه من أجلكم ، وتأملوا ما بينته لكم، وتفكروا فيه لتعرفوا معانيه وتصيروا من أجل ذلك حكماء أخيارا فضلاء أبرارا فأوصلكم إلى مجلسى فتكونوا سعداء منعمين أبدا .

وكان مما كتب لهم فى ذلك المجلس من العلوم :

(١) ان صور فى أعلى قبة المجلس صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها وأبراج مطالعها ، وكذلك الكواكب وحركاتها وأوضح دلائلها وأحكامها .

(٢) وصور فى صحن المجلس صورة الارض وأقسام الاقاليم وخطط الجبال والبحار والبرارى والانهار ، وبين حدود البلدان والمدن والمسالك والممالك .

(٣) وكتب فى صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها ، وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها .

(٤) وكتب فى الجانب الاخر علم الصنائع والحرف وبين كيفية الحرث والنسل وصور المدن والأسواق وبين أحكام البيع والشراء والربح والتجارات .

(٥) وكتب فى الجانب الاخر علم الدين والملل والشرائع والسنن والحدود والاحكام .

(٦) وكتب فى الجانب الاخر السياسة وتدبير المملكة وبين كيفية جباية الخراج والكتاب والدواوين وبين ارزاق الجنود وحفظ الرعية والثغور بالجيوش والاعوان .

فهذه ستة أجناس من العلوم يراض بها أولاد الملوك .

وهذا مثل ضربته الحكماء .

ذلك أن الملك الحكيم هو الله تعالى — والاودلاد الصغار هى الانسانية — والقصر المبنى هو الفلك بأسره - والمجالس المتقنة هي صورة الانسان — والاداب

المصوره هى عجيب تركيب جسده ـ والعلوم المكتوبة فيه هى قوى النفس ومعارفها . ونحن نبين هذا فصلا فصلا » .

وانا لنجد فى كل هذا نظاما تعليميا يستحق الرعاية من رجال التربية فى عصرنا الحديث .

• • •

وليس هذا فحسب هو مانجده للعرب من البحوث فى التربية والتعليم . فأنا نجد كذلك لبعض الباحثين آراء عملية لها مكانتها ، إذا قيست بمعيار الاراء الحديثة فى التربية .

فالغزالى له فى هذه النواحى آراء نافعة فى كتاب « أحياء علوم الدين »

فمن ذلك :

« آداب المتعلم » :

(١) طهارة النفس عن مذموم الأوصاف

(٢) ألا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعى الترتيب ويبتدىء بالأهم .

(٢) أن يعلم نسبة العلوم إلى القصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره .

« آداب المعلم »

(١) الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه .

(٢) ألا يطلب على افادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله

(٣) ألا يدع من نصح المتعلم شيئا .

(٤) الوظيفة الرابعة وهى من دقائق صناعة التعليم :

أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولايصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة ويهيج الحرص على الاصرار

(٥) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله .

ومن ذلك بحوثه فى الاخلاق وحقيقة الخلق ومايناله به حسن الخلق ، وفى تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق ، وبيان علامات حسن الخلق .

ومن ذلك ماساقه فى رياضة الصبيان ووجه تأديبهم :ـ

(١) أن يمدح عنده الصبى المتأدب .

(٢) أن يجازى على مايظهر منه من خلق جميل وفعل محمود

(٣) لاتكثر القول عليه بالعتاب .

(٤) أن يعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة

(٥) الحفظ من قرناء السوء

(٦) أن يؤذن له بعد الانصراف من الدروس أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب بحيث لايتعب فى اللعب . فان منع الصبى من اللعب وارهاقه إلى التعليم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش .

ولابن خلدون فى مقدمته آراء لابأس بها وقد ساقها فى الفصل الذى عقده فى العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه :

فتحدث فيما يأتى :

(١) فى أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة .

(٢) فى أصناف العلوم الواقعة فى العمران .

(٣) فى أن كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم .

(٤) فى وجه الصواب فى تعليم العلوم وطريق افادته :

١ ـ وذلك أن تلقين العلوم إنما يكون مفيداً اذا كان على التدريج .

٢ ـ لاينبغى أن يزيد المتعلم على ماتتسع له طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو فقهياً .

٣ ـ وبحث فى الفكر الانسانى وفى النظام المنطقى للتفكير .

٤ ـ وفى تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية فى طرقه ، فى المغرب وفى الاندلس ، وفى أفريقية ، وفى المشرق

٥ — وبحث أيضا فى طريقة معاملة المتعلمين وفى أن الشدة مضرة بهم ثم ختم ذلك بذكر نصيحة الرشيد للاحمر الشيبانى معلم ولده الامين وهى :

« ياأحمر إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . اقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروه الاشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه مااستطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة »

هذه صفحة من جهود العرب فى التربية والتعليم ونشر الثقافة ، وأنها لصفحة مجيدة يفخر بها التاريخ . ولسنا نبغى بعرضها أن نغض من جهود علماء العصر الحديث فى التربية أو أن ندعى ان الاول لم يترك للآخر شيئا كما يقال ، ولكننا إنما نسطر الواقع ونسجل لذوى الفضل جليل عملهم وصادق جهودهم فيما أدوا للانسانية .

وانا لنرجو أن يكون هذا الماضى المجيد حافزاً للعروبة وللشرق حتى تنهض شعوبه وتسير فى ركب الحياة متعاونة متآزرة وتتخذ لمستقبلها دعائم من العقل الراجح والهمة الوثابة والخلق القويم .

عبد المجيد حسن

شوقى والعلم

للأستاذ احمد محمد الحوفى

تمهيد ، شغف شوقى بالعلم ، دعواته اليه وتوضيحه لآثاره ، جرائر الجهل ، العلم فى المدرسة وبعدها ، حظ المرأة من العلم ، الغرض السامى من العلم ، فخره بماضى مصر العلمى ؛ جلال المعلم .

(١)

أبرز سمات العصر الحديث أنه عصر العلم والثقافة ، وكل ما تشهده من جديد فى العالم ، وما نعجب به من طريف فى هذه الحياة ، وما نستمتع به من خير أو نصطلى به أحيانا من شر إنما مرده الى العلم ، ومرجعه إلى الثقافة .

والأمم تسمو بعلمائها ، فتمجد فى عهود السلم ، وترهب فى أعاصير الحرب ، ويكاد الواقع يقرر أن الاستعمار فى الزمن الحديث إنما هو استعمار العلماء للجهال ، فحيثما أنار العلم ، وشع فى النفوس كانت القوة والسلطان والمجد وحيثما أطبق الجهل بظلامه خوت النفوس من معانى العزة والكرامة والمجد ، فتسلط العالم على الجاهل ورغب القوى فى امتلاك الضعيف ، واستعمر القوى بعلمه الضعيف بجهله ، وإن كان عدد الغالبين المستعمرين لا يبلغ عشر عدد الضعفاء المغلوبين .

ومأساة الشرق بالغرب تؤيد هذا ، فان أوربا لم تستعمر الشرق إلا فى عهود جهالته ، الجهالة التى جنت عليه الضعف والفقر والمرض ، وجرت وراءها الفرقة والانقسام واختلاف الوسيلة والغرض ، وأعمت الشرقيين عن كنوز الخيرات التى يطئونها بأقدامهم ، فتزاحم الغربيون لاستغلالها وامتلاكها واحتكارها ، ومنوا على بعض المواطنين بأن يكونوا عمالا فيها ، وظل الشرق فى غفلته أو سكرته إلى أن بعثه العلم من رقدته ، إذ علم أفراد منه فتصدروا صفوفه ، ونفخوا من روحهم القوى

فى روحه ، ونصبوا أمامه المثل العليا لحياة العزة والكرامة ، واتخذوا من نشر العلم وسيلة لبث آرائهم ، فسرعان ما استفاق الغافل ، ونشط الخامل ، وهبت أمم الشرق كلها تجاهد وتناضل .

وقد يمترى بعض الناس فى أن العلم وسيلة القوة فى الحروب ، كأنهم لا يعلمون أن الحروب تعتمد على الجيوش ، ولا بد لها من علوم متنوعة تتصل بطبيعة الأرض ومواقع البلدان ، وأحوال الجبال والسهول والوديان ، وطبيعة الجو ، وحساب الأبعاد ، وإصابة الأهداف ، واختراع الأوزار والآلات : من طيارات وغواصات وقنابل ومدمرات . . .

وإذا كانت الحرب الاخيرة فى جملتها حرب آلات ومخترعات فان هذه الآلات والمخترعات كانت وليدة العلم ، وثمرة الجهاد الطويل للابتكار ، وكان فى كل أمة آلاف من العلماء جيشتهم فى معاملها ومصانعها ليخترعوا .

وما القنبلة الذرية إلا ثمرة لبحوث متواصلة ، ولولا العلم ما كان تحطيم الذرة وإن كنا لا نعنى الاشارة بما نشأ عنه أو ينشأ من تهديد المسلح للاعزل ، وإنما نعنى الاشارة بالآثار المحمودة النافعة الخيرة التى سيجنيها العالم من استخدام الذرة فى الصناعة والطب وغيرهما من وسائل الرفاهة والكمال .

وإن العلم هو الباعث على وثبات الشعوب ، ونهضات الامم ، وأيما نهضة اصطنعتها القوة المادية وحدها كانت كالحصن شيد على دعائم من الرمال ، لا بقاء له ولا صولة ولا طاقة له بأول جولة .

(٢)

لهذا كله كان أمير الشعراء حريصا على أن تتسلح مصر بالعلم ، فى الحرب والسلم ، وكان كلفا بالدعوة اليه يرددها فى كثير من قصائده ، حتى ليصح أنها عقيدة من عقائده .

وليس ذلك بعجيب منه بعد ماذاق حلاوة الثقافة شرقية وغربية ، قديمة وعصرية وعلم من تجارب الايام ، وعبر التاريخ أن العلم ذريعة القوة ، وعاش فى عصر اسماعيل وما بعده ، عصر الافاقة واليقظه وإشراق العلوم بمصر .

ثم إنه رأى أوربا تتسابق فى ميادين المعرفة ، وتتنافس فى حلبة الاختراع ، وتعتز بعلمائها وأدبائها كما تعتز بملكها وفتوحها ، فود لو تقتدى مصر بها ، ولا يبقى جاهل تحت سمائها .

(٣)

يقرر أن العلم هو الوسيلة للفوز والغلب ، وحياة السعادة والسيادة ، وأنه سياج المملكة وحارسها وحاميها ، لان العلماء بآرائهم واختراعهم يذودون عن الحمى ، ويقون الوطن غير العدوان ، كما تحمى الاسود عرينها .

يقول فى مدحة من مدائحه للمغفور له الخديو عباس :

بالعلم تمتلك الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال
والعلم يعتصم الملك الكبير به كالغاب مابين آساد وأشبال

ويقول للمغفور له الملك فؤاد فى حفلة افتتاح الجامعة المصرية :

وألق فى أرض منف أس جامعة من نورها تهتدى الدنيا بنبراس
ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلاطب ولا أسس

ويقول له أيضا :

إن سرك الملك تبنيه على أسس فاستنهض البانيين العلم والادبا

ويقول أيضا .

فلم تبرح القصر الا شفيت جدوب العقول واعحالها
لقد ركب الله فى راحتيك يمين الجدود وشمآلها
تخط وتبنى صروح العلو م وتفتح للشرق أقفالها

ويقول له فى قصيدة الازهر .

والله ماتدرى لعل كفيفهم يوما يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد غبنا وجل المشترى والمشترى

ويقول فى قصيدة دمشق :

الملك حول لسان تحته أدب وتحت عقل على جنبيه عرفان

ولم ينس فى الاحتفال ببنك مصر أن يقرن المال بالعلم فى الجلال والقدر،

وانه دعامة من الدعائم التى يقوم عليها صرح الوطن ، وما قيمة المال بغير علم ؟ أليس العلم هو الذى يثمر المال فى وجوه نافعة ، ويبتكر الوسائل للوصول اليه ؟ هذه مصر قد احتكر الاجانب صناعتها وتجارتها ، وزاحموا حتى فى زراعتها منذ كانت تجهل كنوزها ، فلما تعلمت شرعت تدبر شأنها ، وتسترد بعض مالها ، لأنها أحق بخيراتها .

يا طالبا لمعالى الملك مجتهدا خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يبق ملك على جهل واقلال

. . .

وانما تمسك الامم ملكها الوطيد بالعلم والعدل أولا ، وكل ملك شيد بالقهر والغلب وحد السيف مع مجافاة العلم فمصيره الزوال ، لأن أسباب بنائه ، ومظان بقائه ، هى أسباب فنائه .

استمعوا إلى شوقى فى قصيدته « الاندلس الجديدة » يخاطب مدينة أدرنة من كبريات العواصم العثمانية فى مقدونية ، ويتحسر على سقوطها فى يد البلغار سنة ١٩١٢ ثم يعزو تقوض ملك الترك إلى أن دولتهم قامت على البطش والجبروت ، لا على الثقافة والعلوم

رفعوا على السيف البناء فلم يدم ما للبناء على السيوف دوام
أبقى الممالك ما المعارف أسه والعدل فيه حائط ودعام
فاذا جرى رشداً ويمنا أمركم فامشوا بنور العلم فهو زمام

٭٭٭

وإذا كان الملك عزرائيل ينتزع الأرواح من الأجساد فتحول جثثاً هامدة ، فان الجهل ينتزع من الأرواح سماتها الانسانية ، وخصائصها الادمية ؛ فيئول بالجهال إلى فصائل البهم ، إذ ليس لهم من معنى الانسانية إلا أسمها

الجهل لا تحيا عليه أمة كيف الحياة على يدى عزريلا

. . .

إنى نظرت إلى الشعوب فلم أجد كالجهل داء للشعوب مبيدا

الجهل لايلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا

...

أيقنت أن الجهل علة كل مجتمع سقيم

وقد كرر شوقى هذا المعنى فى تحيته للترك، وكأنه كان يستشف من وراء الغيب أن الكلمة الأخيرة فى الحروب ستكون للقلم والعلم، لأن المخترعات الفتاكة فى غنى عن العدد وعن الشجاعة:

هذا الزمان تناديكم حوادثه يادولة السيف كونى دولة القلم
فالسيف يهدم فجراً ما بنى سحرا وكل بنيان علم غير منهدم
قد مات فى السلم من لارأى يعصمه وموت الحرب بين البهم والبهم
وأصبح العلم ركن الآخذين به من لايقم ركنه العرفان لم يقم

...

وكلما صاغ شوقى قصيدة فى موضوع ذى صلة بالعلم أو بالفن — على أنه الجانب التطبيقى من العلم — سكب فى قلوب الشباب من روحه الوثاب

ها هو فى قصيدة عن الطيران عند قدوم «فدرين» و «بونيه» طائرين من باريس إلى مصر سنة ١٩١٤ يلتفت إلى الشباب المصرى يوقظه من غفلته، ويبعث فيه الثقة والغيرة والطيران بمصر إلى جو المعالى على أجنحة من العلم:

إنما مصر إليكم وبكم وحقوق البر أولى بالقضاء
عصركم حر ومستقبلكم فى يمين الله خير الأمناء
لاتقولوا: حطنا الدهر فما هو إلا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة فى جهلها ظهرت فى المجد حسناء الرداء
فخذوا العلم على أعلامه واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واطلبوا المجد على الارض فان هى ضاقت فاطلبوه فى السماء

وفى تحية أخرى لطيارين فرنسيين مجد العلم المخترع، العلم الذى لو تقدم به الزمن واقترن بالتحدى من فرد لعصره لعد معجزة، ثم أثنى على الشجعان من العلماء

الذين أهلكتهم جرأتهم مثل « إيكار » ، و (عباس بن فرناس) وحسبهم من حسن الأحدوثة أنهم خلفاء الرسل فى المعرفة والاستشهاد ؛ وتهز الفرصة فصرخ فى أذن الشرق الغافل ليستفيق ، فالحياة زحام وصراع يهلك فيها من استنام ، والحياة جد وكفاح لا يغنى عنهما شيئا ماض مجيد كان للاباء والأجداد :

قم سليمان بساط الريح قاما ... ملك القوم من الجو الزماما
حين ضاق البر والبحر بهم ... أسرجو الريح وساموها اللجاما
صارما كان لكم معجزة ... آية للعلم آتاها الأناما
قدرة كنت بها منفردا ... أصبحت حصة من جد اعتزاما
طلبة قد رامها آباؤنا ... وابتغاها من رأى الدهر غلاما
أسقطت إيكار فى تجربة .. ... وابن فرناس فما اسطاع قياما
فى سبيل المجد أودى نفر ... شهداء العلم أعلاهم مقاما
خلفاء الرسل فى الأرض همو ... يبعث الله بهم عاما فعاما
أيها الشرق انتبه من غفلة ... مات من فى طرقات السيل ناما
لا تقولن : عظامى أنا ... فى زمان كان للناس عصاما
شاقت العلياء فيه خلفا ... ليس يألوها طلابا واغتناما
كل حين منهمو نابغة ... يفضل البدر بهاء وتماما

...

وفى قصيدته التى كرم بها المغفور له أحمد حسنين باشا الرحالة يقول للشباب :

قل للشباب بمصر عصركم بطل ... بكل غاية إقدام له ولع
ما الجاه والمال فى الدنيا وإن حسنا ... إلا عوارى حظ ثم . ترتجع
عليكمو بخيال المجد فأتلفوا ... حياله ، وعلى تمثاله اجتمعوا
وإن نبغتم ففى علم وفى أدب ... وفى صناعات عصر ناسه صنع
وكل بنيان قوم لا يقوم على ... دعائم العصر من ركنيه منصدع
شريف مكة حر فى ممالكه ... فهل ترى القوم بالحرية انتفعوا ؟

...

والفنون الجميلة فى رأى شوقى نفحات من الله تعالى جمل بها الحياة وعطرها ، وهذب بها النفوس ورقق الطباع ، وأرجع الى الناس نشاطهم إذا ما فتروا ، وأملهم إذا ما يئسوا ، والفن الجميل زينة الممالك وحلاها :

يقول فى رثاء سيد درويش :

لاترق دمعا على الفن فلن ... يعدم الفن الرعاة الامناء
هو طير الله فى ربوته .. يبعث الماء اليه والغذاء
روح الله على الدنيا به ... فهى مثل الدار والفن الغناء
تكتسى منه ومن آذاره ... نفحة الطيب واشراق البهاء
وإذا ما حرمت رقته ... فشت القسوة فيها والجفاء
وإذا ما سئمت أو سقمت ... طاف كالشمس عليها والهواء
وإذا الفن على الملك مشى ... ظهر الحسن عليه والرواء

...

والشعراء فى رأيه هم الناس ، أى الكملة فى الحيوية وفيض الشعور والاحساس

جاذبتنى ثوبى العصى وقالت ... أنتم الناس أيها الشعراء

ولما كادت باريس تسقط فى الحرب العالمية الأولى تفجع الشاعر لسقوطها المتوقع لأنه يعرف لها فضلها على الأدب والفن والعلم ، ولأنها مقصد الطلاب من الشرق والغرب :

زعموك دار خلاعة ومجانة ... ودعارة يا إفك مازعموك
إن كنت للشهوات ريا فالعلا ... شهواتهن مرويات فيك
تلوين أعلام البيان كأنهم ... أصحاب تيجان ملوك أريك
فاضت على الأجيال حكمة شعرهم ... وتفجرت كالكوثر المعروك
والعلم فى شرق البلاد وغربها ... ماحج طالبه سوى ناديك

* * *

والاسلام يدعو إلى العلم ويكرر الدعوة ، إذ قام الاسلام على السمو بالروح وتطهير القلب وتربية العقل بالتفكير فى خلق السموات والأرض ، وأقام الاسلام

أسسه على العقل والتفكير ، فرفع من قواعد العلم وحببه إلى النفوس ، وحسب العلماء فخارا أن الله تعالى يقول « يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أوتوا العلم درجات » ويقول «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » ويقول سبحانه : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » : ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ويقول : « أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع ، وإن استغنى عنه أغنى نفسه » .

لذلك ذكر شوقى من مآثر الرسول على العالم أنه بعث بدين يربى العقول ويرفع من أقدار العلماء .

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من الرمم
والجهل موت فان أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم
خططت للدين والدنيا علومهما ... ياقارىء اللوح بل يالامس القلم
أحطت بينهما بالسر وانكشفت ... لك الخزائن من علم ومن حكم
لما اعتلت دولة الاسلام واتسعت ... مشت ممالكه فى نورها التمم
وعلمت أمة بالقفر نازلة .... رعى القياصر بعد الشاء والغنم
كم شيد المسلمون العاملون بها ... فى الشرق والغرب ملكا باذخ العظم
للعلم والعدل والتمدين ماعزموا ... من الأمور وما شدوا من الحزم
ويجلسون إلى علم ومعرفة .... فلا يدانون فى عقل ولا فهم

. . .

ويقول :

ظلموا شريعتك التى نلنا بها ... مالم ينل فى رومة الفقهاء
مشت الحضارة فى سناها واهتدى ... فى الدين والدنيا بها السعداء

(٤)

ويمد شوقى بصيرته إلى بواعث الجرائم فيجدها ناجمة من ضيق العقل واضطراب الرأى والجهل بمصاير الأمور ومصادرها .

فنى تهنئة للزعيم الخالد سعد زغلول بالنجاة من إطلاق الرصاص عليه وهو

يتأهب للسفر إلى انجلترا للمفاوضة — عاب على الشباب أنه منصرف عن واجبه الأول ليلهو بالسلاح، وأنه طائش لا يميز، وأن اغتيال الزعماء ليس بوسيلة للتحرر، وما وسيلة التحرر إلا الجيش اللهام والعلم الهادى والخلق الممسك بالزمام :

أرى مصر يلهو بحد السلا ح ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير مجال العقو ل يجيل السياسة غلمانها
وما القتل تحيا عليه البلا د ولا همة القول عمرانها
ولا الحكم أن تنقضى دولة وتقبل أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلا د وبالعلم تشتد أركانها
فأين النبوغ وأين العلو م وأين الفنون واتقانها
وأين من الخلق حظ البلا د إذا قتل الشيب شبانها

. . .

والجهل يعمى المنتخبين عن اختيار الكفء الصالح للنيابة ، لأنهم ينخدعون بالوعود المعسولة ، والدعايات الجوف ، والزلفى الخادعة

تلك الكفور وحشوها أمية من عهد « خوفو » لم تر القنديلا
يتلو الرجال عليهمو شهواتهم فالناجحون ألذهم ترتيلا

. . .

فعلى شيوخ الأمة ونوابها أن يتداركوا التعليم فى مصر فينشروه فى كل مكان تظله سماؤها ، ويعيش فيه أبناؤها :

البرلمان غدا يمد رواقه ظلا على الوادى السعيد ظليلا
نرجو إذا التعليم حرك شجوه ألا يكون على البلاد بخيلا

. . .

وعلى الشباب أن يسموا فى تنوير الشعب ليتخير النواب العلماء الأكفاء للدفاع عن حقوقه حتى لا يوصم الرأى العام بأنه كالقطيع يساق ولا يقاد :

قل للشباب اليوم بورك غرسكم دنت القطوف وذللت تذليلا

ناشدتكم تلك الدماء زكية لاتبعثوا للبرلمان جهولا
إن أنت أطلعت الممثل ناقصا لم تلق عند كماله التمثيلا
فادعوا لها أهل الأمانة واجعلوا لأولى البصائر منهم التفضيلا

. . .

دار النيابة هيئت درجاتها فليرق فى الدرج الذوائب والذرى
الصارخون إذا أسيء إلى الحمى والزائرون إذا أغير على الشرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الأولى يمشون فى ذهب القيود تبخترا

(٥)

وشوقى لايريد بالعلم الاقتصار على برامج المدارس لأنها ليست إلا مفاتيح للاستبحار والتعمق ، وكم من متعلم اقتصر على ماعلمه فى المدارس ، وودع الكتاب يوم غادر المدرسة فصار بعد حين فى عداد القارئين ، لا فى عداد المثقفين الذين يسايرون الحركة الفكرية ويغذون أرواحهم كما يغذون أجسامهم . وإنما يريد شوقى بالعلم هذا النشاط الذهنى المتوقد ، وهذا النهم إلا الاستزادة من المعرفة وليس أضر على العلم والمتعلم من أن يطلبه للوظيفة وحدها :

وأطلبوا العلم لذات العلم لا لشهادات وآداب أخر
كم غلام خامل فى درسه صار بحر العلم أستاذ العصر
ومجد فيه أمسى خاملا ليس فى من غاب أوفى من حضر

. . .

وكم منجب فى تلقى الدروس تلقى الحياة فلم ينجب

ويقول فى أسواق الذهب تحت عنوان : « شهادة الدراسة وشهادة الحياة مابال الناشيء وصل اجتهاده ، حتى حصل على الشهادة ، فلما كحل بأحرفها عينيه ، وظفرت بزخرفها كلتا يديه ، هجر العلم وربوعه ، وبعث إلى معاهده بأقطوعة . طوى الدفاتر وترك المحابر ، وذهب يخايل ويفاخر ، ويدعى علم الأوائل والأواخر ، فمن ينبيه أن الشهادة طرف السبب وفاتحة الطلب والجواز إلى أقطار

العلم والأدب ومن يقول له أرشده الله إن شهادة المدرسة غير شهادة الحياة ؟ »

(٦)

وشوقى حريص على تعليم الفتاة لأنها بعد حين الأم التى تلد الأطفال أو الأشبال وتربيهم على أحسن مثال ، الأم التى تستحق كلمة نابليون انها تهز المهد بيمينها وتحرك العالم بيسارها .

وإذا النساء نشأن فى أمية رضع الرجال جهالة وخمولا

ويقول مبينا حظ النساء من العلم فى صدر الاسلام وعصور الازهار ومفاخراً بما كان لهن من آثار .

هذا رسول الله لم ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة كنسائه المتفقهات
رضى التجارة والسيا سة والشئون الأخريات
ولقد علمت بناته لجج العلوم الزاخرات
كانت سكينة تملأ الد نيا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت آى الكتاب البينات
وحضارة الاسلام تن طق عن مكان المسلمات
بغداد دار العالما ت ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمية أم الجوارى النابغات
ورياض أندلس نمي ن الهاتفات الشاعرات

(٧)

ولا بد أن يكون الغرض من العلم ريا للنفوس العطاش الى الخير والحق والجمال ، لأن العلم من نور الله ، وهبة من عطاياه ، ولو صح أن الله تعالى يرى لكان العلم هو المصباح الذى يراه به العلماء ، فكيف يسوغ أن يستخدم العلم فى الشرور وفيما يغضب الله ؟ إن الابطال الخليقين بألقاب البطولة هم العلماء ، لأنهم لا يحاربون إخوانهم من الناس بالسيف والرمح ليقوضوا الحضارة ويخربوا

المدنية ، وإنما يحاربون أمراض الانسانية وأدواءها لتصح وتسلم وتكمل ، وهذا هو الجهاد ، وتلك هي البطولة :

لو يرى الله بمصباح لما كان إلا العلم جل الله شأنا
ياطرازا يبعث الله به في نواحي ملكه آنا فآنا
من رجال خلقوا ألوية ونجوما وغيوثا ورعانا
قادة الناس وإن لم يقربوا طبعات الهند والسمر اللدانا
وهم الابطال كانت حربهم منذ شنوها على الجهل عوانا

• • •

أما العلم الذي يفتن في ابتكار معاول التدمير والتخريب والازهاق والاحراق وتسلط الباطل على الحق ، والشر على الخير فالجهل خير منه والانسانية منه براء .

يقول شوقي بعد وصف الغواصة :

فلا كان بانيها ولا كان ركبها ولا كان بحر ضمها وحواها
واف على العلم الذي تدعونه إذا كان في علم النفوس رداها

ويقول في رثاء مصطفى فهمي باشا معرجا على الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ :

يتقاذفون بذات هول لم تهب حرم المسيح ولا حمى العذراء
من محدثات العلم إلا أنها إثم عواقبها على العلماء

(٨)

ويفخر بسبق مصر في مجالي العلم ، وتفوقها على العالم القديم ، ويكرر الفخر بفضلها وأستاذيتها .

ففي قصيدته الكبرى (أيها النيل) المهداة إلى الأستاذ مرجليوث يفخر بأن النيل مهد الحضارة ، في واديه نبتت ، وعلى عبريه ترعرعت ، وضاع عبيرها فنبه الأمم .وهذه الاثار الخالدات وصحائف البردى العتيقات نواطق وشواهد ، والى مصر وفد العطاش إلى المعرفة فارتووا

أصل الحضارة في صعيدك ثابت ونباتها حسن عليك مخلق
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت فأظلها منك الحفي المشفق
ملأت وبارك حكمة مأثورها في الصخر والبردى الكريم منبق

وبنت بيوت العلم باذخة الذرى يسعى لهن مغرب ومشرق

وكان نهازاً للفرص ينوه فيهن بمجد مصر وفضلها ، يريد أن يبعث في الشباب النخوة ، ويحي لهم مثل البطولة ومعالم السبق . ويستحثهم الى إعادة ما مضى ،ويريد أيضا أن يفاخر الأمم بهذا المجد ليعلى شأن مصر الموفقة في الجغرافيا الفلكية والاقليمية ، ونوه برحلات المصريين وجوبهم البحار ، في عصور لا كهرباء فيها ولا بخار :

نزلن أول دار في الثرى رفعت للشمس ملكا وللأقمار سلطانا

تفننت قبل خلق الفن وانفجرت علما على العصر الخالي وعرفانا

أبوة لو سكتنا عن مفاخرهم تواضعا نطقت صخرا وصوانا

لم يسلك الأرض قوم قبلهم سبلا ولا الزواخرا ثباجا وشطانا

تقدم الناس منهم محسنون مضوا للموت تحت لواء العلم شجعانا

جابوا العباب على عود وسارية وأوغلوا في الفلا كالأسد وحدانا

أزمان لا البر بالوابور منتهبا ولا البخار ابنت الماء ربانا

وجميل منه أن يعود الى المؤتمر فيأمره أن يقف وقوف العالم ليناجي العلم مهده . ويذكر عهده ، أزمان شب وترعرع في رعاية الكهان والنبيين .

يا موكب العلم قف في أرض (منف) به يناج مهدا ويذكر للصبا شانا

يبكى تمائمه طفلا بها ويبكي ملاعبا من ربا الوادي وأحضانا

أرض ترعرع لم يصحب بساحتها إلا نبيين قد طابوا وكهانا

(٩)

وبعد ، فقد مجد شوقي العلم أي تمجيد ، فما قدر المعلم في نظره ؟ إنه لقدر عظيم وبحسبه أنه يكاد يكون رسولا ، وأن الله تعالى هو المعلم الاول ، علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ، وأنه تعالى ابتعث الأنبياء معلمين :

وإنك لا تجد في الأمة أعظم منه أثرا ، ولا أجل خطرا . لأنه يبني نفوسا وعقولا ، وأن المعلمين هم الذين يحملون العبء ثقيلا ، وهم هداة الامم الى الخير والحق والجمال ، وقائدوها الى العزة والكرامة ، ولذا قال بسمرك بعد حرب السبعين

« إنما غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة » قال شوقى :

قم للمعلم وفه التبجيلا — كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذى — يبنى وينشىء أنفسا وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم — علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا — وابن البتول فعلم الانجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمدا — فسقى الحديث وناول التنزيلا
أمعلمى الوادى وساسة نشئه — والطابعين شبابه المأمولا
والحاملين إذا دعوا ليعلموا — عبء الأمانة فادحا مسئولا
إنى لأعذركم وأحسب عبأكم — من بين أعباء الرجال ثقيلا

أحمد محمد الحوفى

المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية

أسماء بنت أبى بكر (١)

للأستاذ محمد بيلى الفار

سيداتى — سادتى

أقرأ عليكم الليلة صفحة من صفحات المجد الباقية سجلتها بأعمالها العظيمة أسماء ،

وأسماء بنت أبي بكر وأبو بكر قرشى من سادات بنى تميم مصابيح الظلام أولته قبيلته زعامتها حين استد ساعده ، لما توسمت فيه من خلال الخير فقد كان رقيق الطبع رزيناً لايغلبه الهوى حسن الحديث حلو المعاشرة . قال ابن هشام : كان أبو بكر رجلا محبباً سهلا وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر وكان رجلا تاجراً ذا خلق معروف وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته .

أما أمها فقتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر — والتاريخ لم يحدثنا عما يكشف عن صورة واضحة كهذه الأم المنجبة — ولكن حسبها أن يختارها أبو بكر زوجا له فالرجل الذى عرفه التاريخ بصفات العظمة والحصافة — لا يختار زوجه بهواه بل بعقله ورويته — فقتيلة مما لاشك فيه زوج صالحة ، لأن أبا بكر — العالم النسابة بجيد الاختيار — وقتيلة أم صالحة أيضاً لهذا الاختيار ولما أنجبت من ولد ولئن لم يكن لها من الولد غير أسماء إنها بهذه النجيبة أم صالحة وجد صالحة فأسماء إذاً غراس طيب فى تربة طيبة — وأسماء شجرة مباركة تعهد تهايد صناع قد استكملت ما يجعل أشجارها تؤتى ثمارها ناضجة شهية بعد حين — وأسماء إذاً قد تخرجت فى مدرسة الشرف والحصافة والعلم ولقنت من أبيها وممن كان يجالس أباها ما يثقف العقل ويوسع الأفق ويهذب النفس ويبصر الطفل بدنياه .

---

(١) ألقيت من محطة الاذاعة بمصر

تخرجت أسماء فى مدرسة زعيم قومه ومن كان فيصلا فى أمورهم يقول فيصدق وإن قال غيره ما يقوله كان غيره موضع الريبة والتكذيب .

وإذا كان الطفل صورة بيته ، أبيه وأمه فأسماء صورة صادقة واضحة لهذا البيت الغنى بالأدب والعلم والذى هوأحد البيوت العشرة التى انتهى إليها الشرف فى قريش الجاهلية والذى بقى شرفه موصولا بأبى بكر فى الاسلام .

ومن الحق أن نقول ، بعد أن درسنا سيرة أبى بكر فى بيته ، كما قال الأستاذ العقاد ! إن النشأة فى حياة أبى بكر البيتية لا تتمثل فى شىء كما تتمثل فى نشأة بنتين عائشة وأسماء . وعائشة رضى الله عنها ليست من موضوع حديثنا .

أما أسماء ذات النطاقين فما حمد الناس فضيلة لامرأة بنتاً وزوجا وأما إلا كانت أسماء أجمل نموذج لهذه الفضيلة ، وأسمى صورة من صورها .

أسلمت أسماء مع أبيها ، فهى من الأوليات السابقات — وكتبت أسماء لنفسها فى هجرة الرسول وصاحبه إلى المدينة صحيفة شرف مخلدة تقرأ مقرونة بالتمجيد والاعجاب .

خاطرت بنفسها لاخفاء هجرة الصاحبين على المتربصين والمستشرفين فكانت فى ذلك مستودع سر هائل حملته أمينة عليه ومن حولها شياطين قريش يلجون فى تعرف أخبار محمد ويبذلون فى ذلك أموالهم ونفوسهم — وأسماء موطن من مواطن هذا التقصى وهدف من أهداف ذلك البحث لأنها ابنة أبى بكر صديق محمد الوفى وصاحبه الامين .

دلت أسماء بكتمان السر والاحتفاظ به موفورا على أنها ممن يقدرون الأسرار ويحتفظون بالامانات وإن كانوا فتيانا قد كثرت من حولهم المحاولات لاستخلاص ما تحمل قلوبهم من أسرار عظام . كانت أسماء تمسى الصاحبين ، وهما فى الغار يستعدان للهجرة ، كل ليلة بالزاد والماء وبما عسى أن تكون سمعته أو رأته من أحاديث القوم وأخبارهم .

ولما كانت ليلة السفر لم تجد أسماء لسفره الطعام وقربة الماء ما تشدان به الى الراحلة غير نطاقها فخرجت عنه وجعلته شقتين شدت بأحداهما السفرة وبالاخرى

القربة فسميت لذلك ذات النطاقين ولئن سلمت أسماء من الليل ومخاوفه والطريق وعثراته إنها لم تسلم من أذى قومها فلقد أحاط بدارها ذات صباح رجال من قريش ليتعرفوا أمر أبيها فلما تجاهلت خبره أمعنوا فى أذاها حتى لطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها فما استكانت وما ضعفت بل ردت عزيمتها وإيمانها القوم خاسرين

ذلك شأن أسماء الفتاة .

أما أسماء الزوج فقد كانت من المثل العليا للزوج المخلصة تشارك زوجها نعماء الحياة وبؤسها وهى تؤمن أن ذلك واجبها .

تزوجت الزبير بن العوام وكان فقيراً لا مورد له فلن تر عيباً - وهى - بنت أبى بكر السرى المثرى - أن تعلف فرسه وأن تطحن بيديها النوى لبعيره وأن تستقى له الماء وتخرز الدلو وأن تحمل على رأسها علف دوابه مسافة ميلين فى الذهاب ومثلهما فى الاياب وما زال هذا شأنها حتى علم أبوها مصادفة بما تحمل من جهد ومشقة فى خدمة زوجها فأعانها بخادمة تحمل عنها بعض ما تحمل من أعباء ثقال قامت بها زمانا وهى من علمنا من شرف المحتد وعزة البيت وثرائه ولكن العظيم لا يمن ولا يفخـــر بل قد يظن أن نفسه لم تقم بشىء إلى جانب ما يجب أن تقوم به .

هذا مثل من أمثلة أسماء الزوج .

أما أسماء الأم ففيها يقول صاحب أشهر مشاهير الاسلام إن أسماء هذه رضى الله عنها أشجع نساء الاسلام وأثبتهن جأشا وأعظمهن تربية للولد على الشهامة وعزة النفس وحب أسماء أن يكون ابنها عبد الله المقدام الجرىء العالم الفقيه اللسن الفصيح أول مولود فى الاسلام بعد الهجرة والذى خلع قلوب الأمويين واستخلص لنفسة من براثنهم ملك الحجاز والعراق فدان له القطران بالطاعة زمانا .

بعثت فيه أمه ما وهبت من صفات العظمة والسمو فكان منبتا كريما لغراس هذه النفس الابية الكريمة .

كانت نتيجة الصراع بين عبد الله بن الزبير والامويين أن ضيقوا عليه الخناق فى مكة فانفض عنه الأعوان والأنصار وخذله الأهل والولد

وبذل له أعداؤه ما شاء من أمن وجاه وغنى إن رجع عن قصده وانقطع عن السير فى طريقه فاستشار أمه فى موقفه قال ! يا أماه لم يبق معى إلا اليسير ومن لادفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك ! فما خلع الهول قلبها كما يخلع قلوب النساء ولاضعفت ضعف الامهات حنوا على الابناء ولو فعلت لكان لها عذر وألف عذر ولكن أسماء قابلت الامر العظيم والروع المفجع بفؤاد غير متصدع وأقبلت على ابنها تقول ! ياولدى إن كنت على حق تدعو اليه فامض عليه فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية فيتلعبوا بك وإن قلت إنى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس هذا فعل الأحرار ولا فعل من فيه خير . كم خلودك فى الدنيا ! القتل أحسن ما يقمع به يا ابن الزبير والله لضربة بسيف فى عز أحب الى من ضربة بسوط فى ذل هذه كلمات أم عجوز جاوزت المائة قد تعاقبت عليها ملمات الزمن وأحداث الايام فكف من الاسى بصرها وضعف جسمها بيد أن نفسها وكرامتها وشجاعتها وعزيمتها مازالت فتية قوية فلم تلن فى موطن تذوب فيه قلوب الاقيال والصناديد ولا تحتمله الأفئدة ولو كانت قطعا من حجر وحديد .

قالت لابنها ما قالت فكان آخر ما سمع وآخر ما وعى — ووقع لعبد الله بعد القتل ما كان يخشى من تمثيل وتصليب فجاءت أمه الحجاج تسأله أما آن لهذا الفارس أن يترجل ! فقال الطاغية فى غطرسة وكبرياء المنافق — فأجابت مغضبة والله ما كان منافقا وقد كان صواما قواما فاهتاج الحجاج لردها وقال اذهبى فانك عجوز قد خرفت فقالت لا والله ما خرفت ولقد سمعت الرسول عليه السلام يقول ! يخرج من ثقيف كذاب ومبيد أما الكذاب فرأيناه — وأما المبيد فأنت هو .

موقف نبيل جازت اسماء فيه الشتائم بشتمه ولم تبال سلطانه القاهر ولا أن ترجع من لدنه غير مدركة غايته .

طوى الموت أسماء بعد ليال من ابنها فى العام الثالث والسبعين من الهجرة فضم قبرها عظيمة ينبغى أن تقام لذكرها مواسم المديح والثناء وأن يكون تاريخها بعد ما يسمر به الآباء والأبناء ؟

محمد بيلى الفار
المفتش بالمعارف

فى الأدب المغربي [1]

للأستاذ عبد الله محمد العمرانى

خريج دار العلوم

تحت هذا العنوان أريد التحدث قليلا فيما يختص بأدب المغرب الأقصى وحياته منذ الفتح الأندلسى (سنة ١٧٢ هـ) إلى آخر القرن الثالث عشر الهجرى.

وهو موضوع طويل وعريض. وأخشى أن يكون طوله وعرضه عاملا من العوامل التى ساعدت على التقصير الذى أعترف به من الآن. إن الوقت لايسمح لى الآن بالدراسة التفصيلية لهذا الأدب، كما أن مصادر البحث التى يمكن الرجوع اليها قليلة جداً. ولهذا سأقتصر على أن يكون هذا البحث مركزاً للغاية. وسأجتهد فى إعطاء فكرة تنير السبيل أمام من يريد التوسع فى هذا الأدب. وقد تتاح لى الفرصة لدراسة ألوان الشعر والنثر حين يكون فى الوقت متسع، ويكون مجال البحث أيضا واسعاً.

الغرض من هذا البحث

قد يتفق لبعض الناس هنا فى مصر (كعبة العلم فى العصر الحاضر وملتقى الشرق والغرب) أن يسألنى عن موقع البلاد المراكشية وهل المراد بها المغرب الأقصى؟ كما يتفق للبعض الآخر أن يستفسر عن موقع مدينة ما من هذه البلاد، فآسف أشد

---

(١) محاضرة ألقيت فى قاعة على باشا مبارك بدار العلوم

الأسف لأن هذا البعض أو ذاك يجهل مثل هذه الحقائق ، ثم أدله على موقع هذه أو تلك لأكون قد أديت بعض الواجب على فى ايقافه على مايريد .

قد طرق سمعى مثل هذا السؤال غير مرة فكنت أقول فى نفسى : إذا كانت هذه هى الحال فى معرفة البلاد فكيف الحال فى معرفة أهلها وانتاجها الادبى وغير الأدبى ؟ أفلا يحق لى ولمثلى أن يتعرف إلى الناس مادام أنه قدعرفهم ؟ وأن يعرفهم ببلاده وأدبها مادام هو ببلادهم ؟ فليكن ذلك ! وليقدم كل واحد على التعريف بوطنه وأدبه . فان زمن الوحى أو المعجزات قد انقضى . إن الادب لايعرف الحدود الجغرافية ولن يعرفها ، بل هو حق مشاع بين أفراد الجنس البشرى عامة ، وبين أفراد الامة الواحدة خاصة . إذن فما هذه الحدود والقيود التى تجعل أدب قطر عربى يحجم عن اقتحام قطر عربى آخر مثله ؟

أجل ، هى حدود الصدود والبعاد التى تجعلنا نتساءل : ألا من وصال ؟

وإذا كانت الحروب الحديثة يرجع اليها الفضل التام فى التعريف بالمناطق أوالمدن التى تدور حولها رحى الحرب فانى لاأرى مانعاً من أن أعلن الحرب على الادب المغربى ؟ لعل ذلك يثير من حب استطلاع القراء وأدباء الشرق مايشفى غليلى وعليل كل من يشعر بأن أدب قومه أو بلده يجب أن يسرى على الالسن سريان تيار النور فى أسلاك الكهرباء .

يجب أن نقضى على ماهو كائن أو كان ، وأن نلتفت إلى ماينبغى أن يكون ، يجب أن يكون الأدب أداة اتصال وهمزة وصل بين أمم الارض جميعاً ، وبالاحرى بين أقطار الأمة الواحدة . وما ذلك إلا لان الادب هو السفير الحق بين هذه الامم بعضها مع بعض ، وبين أجزاء الامة الواحدة من باب أولى ان كان هناك أجزاء .

ان رسالة الادب لن تنقضى ، وان جميله لن ينكر مهما كان نوع هذا الادب ولونه . ويذكرنى هذا بمعركة أدبائنا التى وقعت بعد انهيار فرنسا فى هذه الحرب الضروس والتى كان أحد جانبيها فى مصلحة الامة المهزومة يبكيها ويرثى لحالها ، وذلك على الرغم من أنها طالما سامت أبناء أمته سوء العذاب .

إن العصر الحديث يمتاز بالسرعة فى كل شىء ، حتى إن العالم صار ازاء المواصلات

كانه كرة صغيرة أمام الشخص يضع أصبعه على المواطن المختلفة التى يريدها فيصلها بأقصى سرعة . أمع هذا نجد صعوبة فى وصل المغرب بالمشرق ؟ أم نجد صعوبة فى توحيد المناهج الثقافية والادبية بين مختلف الاقطار العربية . ولعل المؤتمر المقبل للتعليم الاسلامى سيقضى على كل الحدود والقيود فيما بين الآداب العربية المختلفة ، ولعله كذلك سيحل من مشكلات التوحيد الثقافى مايحقق شيئا من الآمال فى هذا السبيل .

الأدب وأهميته

ان الادب — وهو فن من الفنون الجميلة — لابد أن يتغير تغير البيئة ، وأن يتأثر بكل مالها من مؤثرات فيه ؟ ومن هنا كان لكل أمة أدبها الخاص .

ومن هنا أيضا كان الكاتب أو الشاعر صورة من بيئته الاجتماعية المحيطة به . وما الأدب إلا لحن جميل تردده ألسن الامة شرقا وغرباً بعد أن تفتن فيه قرائح الأدباء بقدر ماتسمح لها به بيئتها وظروفها الاجتماعية ، وبقدر ماتدركه وتحسه من ألوان الجمال الفنى ، ثم بقدر مايعبر عن عواطفها ومشاعرها المستقلة — نوعاً ما — عن عواطف ومشاعر أقرانها فى أى نحو من أنحاء العالم .

فأهمية الادب تبدو فى تعبيره الصادق عن حياة الامة وروحها . والحياة بأنواعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لابد أن تتراءى على مرآة صافية صقيلة هى الحياة الادبية . وإذا ماأردنا أن ندرس حياة أمة من الامم فلا بد من الرجوع الى انتاجها الفنى ، والادب فى الطليعة من هذا النتاج . ان ارتباط التاريخ بالادب شديد ، ومن ينكر أن التاريخ العربى مثلا — مدين بالشىء الكثير للادب فى كشفه عن الحياة الجاهلية وجلاء غامضها ؟

ويقال هذا فى حياة الامة ذات الادب اللفظى من ألوان الشعر والنثر ، أما الامة ذات الادب الرمزى كانواع التصوير والنحت فلا تخلو من أن يكون أدبها مصحوبا بنقوش تعبر عنه وتحدد لنا الاشياء الادبية المطلوبة . على أن الامة قد تجمع بين الادبين فيسير اللفظى والرمزى جنباً الى جنب كلاهما يكمل صاحبه فيعبر عما نحن

فى حاجة الى دراسته وكشف غموضه . ولايخفى أن للادب فى كل حال من هذه الاحوال الثلاث مقامه الذى يختلف قوة وضعفاً باعتبارين مختلفين .

سقناكل هذا لنتخلص الى نتيجة واحدة هى أن الادب بنوعيه مصدر مهم فى حياة الامة وتاريخها ، بل فى أية ناحية من نواحى هذه الحياة .

الصلة بين الآداب عامة

كلنا يعرف أن لكل أمة أدبها الخاص وهذا مما لاجدال فيه . وكلنا يعرف أن للامة العربية ممالك وأقطاراً ، فلا عجب إذن أن يكون للادب العربى ممالك وأقطار أيضا ، والا فما كان للاندلس أدب ولا للمغرب والشام وبلادالعرب مثلا — آداب أخرى ، وإلا فما فكر كذلك أدباء مصر الآن فى أن يكونوا لها أدبا أو هو كائن بالفعل ولكنهم فى حاجة الى أن يجمعوا شمله ويلموا شعثه حتى يصير كائنا حيا معترفا به من لدن البيئات الادبية الاخرى .

انه لمن السخف جداً أن يقال : ان الادب الجاهلى نسخة من الادب اليونانى القديم أو ان الادب فى قرطبة صورة مكررة لأدب بغداد .

وقد يقال : ان العواطف الانسانية وحدة لاتنفك أجزاؤها ، وسلسلة متصلة الحلقات لايدرى أين طرفاها ، فلم لايكون الادب باعتباره معبراً عن تلك العواطف وحدة كذلك ؟ والجواب على هذا هو أن طريقة الاداء والتعبير عما فى النفس تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان ، وان كانت العواطف والمشاعر لاتختلف ذلك الاختلاف .

ان الطبيعة وهى الام الرءوم ، مستعدة لامداد كل انسان بما يخصه ، ولكن الانسان هو الذى يختلف فى كمية ما يأخذه وكيفيته ، وهذا هو مصدر التعدد والاختلاف بين انتاج الاشخاص بعضهم مع بعض أولا ثم انتاج الشخص الواحد ثانياً .

وما الشأن فى اختلاف الاداء وطرق التعبير عن العواطف الانسانية إلا كشأن الصور الزيتية المتعددة لمنظر ما ، فالمصدر واحد ولكن الاختلاف جاء من

نظرة كل فنـــان الى المنظر الذى أمامه ، فكانت النتيجة أن تختلف الاوضاع والالوان الزاهية لتبدو الصورة ملائمة للطبيعة حينا ، وفائقـة اياها فى حسنها وجمالها حيناً آخر .

ومع هذا الاختلاف فان الآداب عامة لاتعدم صـلة قربى وتشابه بين بعضها والبعض الآخر . وهو تشابه محدود على كل حال ، وان كان يطيب لبعض الناس أحياناً أن يسموه بالاخذ أو السرقة الادبية . والقول الفصل فى هذا هو أن المعانى مشتركة والعواطف واحدة وأنها ملك مشاع بين جميع أفراد الجنس البشرى ، فلكل واحد الحق فى أن يتصرف كما يشاء وأن يعبر عما يحسه ويدركه كيفما يريد . والاتفاق فى طريقة الاداء وأسلوبه قد يكون ناشئا من أن الاديب اللاحق متأثر بالسابق أى أنه قرأو حفظ له كثيراً ثم نسى ماحفظ أو قرأ . ولكن الخلاصة المهضومة والممثلة ، لاتزال عالقــة بذهنه يستطيع التعبير عنها متى أراد .

فعملية الهضم والتمثيل ، تحيل المعـانى أو الافكار المنسية جزءا من لحم الكاتب أو الشاعر ودمه ، وأظن أنه من الاجحاف وعدم الانصاف بعـد عملية التمثيل هذه أن يقال : إن هذا المعنى لفلان ..... وان كان له فضل السبق والتقدم فيـــه .

على أن وجوه الشبه هذه أو مايسمونه بالاخذ أو السرقة قد تكون بين أديبين من أمتين مختلفتين لكل منهما لسان خاص، وقد يكون أحدهما أو كلاهما غير عارف بلغة الآخر . يعلل هذا بأن الانسانية جمعاء مشتركة فى معانى وأحاسيس يحسها كل من له عقل أو قلب ، ولا فرق فى هذا بين زمان أو مكان أو لسان . فآداب اللغات المختلفة تتشابه كتشابه الآداب فى اللغة الواحدة ، مثل الاداب فى هذا كمثل الناس فى صورهم وأجسامهم كلاهما يعيش على نوع من الوراثة تشابه فيه الفروع الاصول فى قليل أو كثير ، وفى أزمان متلاحقة أو متباعدة . إن الانسانية ليست متشابهة فى الاشكال والالوان فحسب ، ولكن فى القرائح والعقول أيضاً .

شخصية الادب المغربي

لئن كان للمغرب الاقصى شخصية ثابتة واستقلال ذاتي في عاداته وتقاليده فلا يدهشنا أن يكون له أدب ذو شخصية ثابتة واستقلال ذاتي كذلك . ومادام الأدب صورة للمجتمع ولما في الحياة التي يحياها أهل ذلك المجتمع ، وما دامت هذه الحياة تختلف باختلاف المؤثرات فيها من عوامل البيئة والوراثة ، فانه من المحتمل جداً بل من المتعين أن يكون لكل مجتمع أدبه الذي يكون مستقلا بقدر ماتسمح به طبيعة ذلك المجتمع التي تطبعه بطابع خاص ، وتصبغه بصبغة ملائمة لحياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولا يغرب عن البال أن المغرب منذ وطئت ثراه قدما المولى ادريس بن عبدالله سنة ١٧٢ هـ ظل مستقلا عن المشرق سياسيا حقبا طويلة من الزمن فنشأت به وازدهرت دول عظيمة الشأن في التاريخ السياسي للمغرب الاقصى فلا عجب إذن أن يستقل عنه أدبيا ، ولا عجب أيضا أن يكون لفنون القول سياسة كما كانت لامور الدولة سياسة وللسياسة كما لا يخفى تأثيرها البالغ في احياء الادب وتوجيهه وصبغه بالصبغة التي تلائمها في كثير من الاحيان واذا عرفنا ذلك عرفنا (أن المبدأ الذي يقول : بأن الأدب للأدب ، قلما يتحقق لكل الناس وفي كل حين . وعلى كل حال فهو مبدأ ينبغي أن يعمل الناس على تحقيقه في أي وقت كان)

لقد اختلفت الأذواق ولا زالت تختلف في معرفة البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال ، ومادامت هذه الأحوال تختلف باختلاف الأقاليم والاقطار فلا شك أن بلاغة أهل المغرب — كما يقول ابن خلدون — غير بلاغة أهل المشرق وبلاغة الاندلس غير هاتين ، لأن عربية المغرب متأثرة بالبربرية (لغة السكان الاصليين) وعربية المشرق متأثرة أيضاً بالفارسية والتركية وعربية الاندلس متأثرة كذلك بلغة الفرنجة والجلالقة (الاسبان) . فمعرفة أية بلاغة من هذه لاتحصل إلا لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها ، إذ أن كل واحد مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته ،

وهنا أرى نفسي مضطرا للرد على صاحب كتاب : المطرب في أدب الاندلس والمغرب ، فقد تجنيا على الادب المغربي وحكما عليه حكما لا يوافق حقائق الامور .

إن هذا الحكم ناشىء من أنهما لم يحسنا الاطلاع على فوائد هذا الادب والغوص وراء لآلئه ودرره . وهذا يحصل كثيرا من أدبائنا الذين ألفوا الحكم على الاشياء قبل معرفتها وتجاهلوا أن الحكم على الشيء فرع دراسته الدراسة العميقة ، وأن البحث العلمى الدقيق يجب أن يتحرى الحقائق وأن يضع الامور فى نصابها لا أن ينظر بعين السخط فيجعل من القبة حبة ، أو بعين الرضا فيجعل من الحبة قبة كما يقولون .

كما أن حكمهما أيضا قد يكون ناشئا من قياسهما المخطىء قياس الشعر الجيد الرصين على ذلك الشعر العامى الذى قرأاه فى مقدمة ابن خلدون وغيرها ، الشعر الذى ينبغى أن نعده شاهدا لا على ضعف الملكة الشعرية هناك ، بل على أن هناك نوعا جديدا من الشعر العامى الاجتماعى نبت وترعرع فى أصيص واحد مع الشعر العربى الفصيح . على أن هذا الشعر العامى — كالفصيح — يختلف من مكان الى مكان ، فبلاغته لا يمكن أن تدرك إلا لمن خالط لغة المكان وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها كما تقدم . إذن لا يمكن أن نصغى أو نتقبل حكم صاحبينا فى هذه الناحية ، إلا اذا تقبلنا حكم أجنبى عن مصر (لا يحسن عاميتها) فى ديوان الاستاذ بيرم التونسى مثلا أو مجلة من مجلات الفكاهة المصرية .

ولعل هذا لم يخرج بنا عن الموضوع مادمنا بصدد الحكم على أن الآداب مستقلة بعضها عن بعض نوعا ما من الاستقلال ، وأن بلاغة هذه الآداب تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان

مميزات هذا الأدب

لا بد لى لكى أعطى صورة صادقة عن هذا الادب المغربى — من أن أجمل مميزاته فى ميزتين اثنتين أستطيع الدعوى بأنها كافية فى اعطاء هذه الصورة واذا كان لكل دعوى دليل فدليلى الذى أقدمه بين يدى القارىء الكريم هو أن يصغى أو يتأمل ما يأتى : —

(١) السهولة : يمتاز الادب المغربى بأنه سهل فى لفظه ومعناه ، أسلوبه وخياله ، تعبيره وتفكيره ، ليست فيه تلك الصعوبة التى قد تضر بضروب الأدب وألوانه أكثر مما تنفع .

إن للتفكير مجاله فى الحقيقة والخيال ، وللتعبير مجاله كذلك ، ومادامت الحقيقة

ثابتة واضحة ، ومادام الخيال توأما لها فالمنتظر أن الأدب سيكون على جانب عظيم من السهولة فى التفكير الذى يخامر الرءوس ، وفى التعبير عما يجول بالنفوس ، وما ذلك إلا لأن مصادر الوحى والالهام من طبيعة وبيئة وحياة سهلة كذلك

وبما يزيد الطبيعة وضوحا تميز الفصول السنوية بعضها عن بعض ، فلكل أوانه وموسمه إلا أن الأدب له فى كل موسم موسم

فللشتاء الذى هو موسم المطر أوانه الذى يجتمع فيه المحبان فى ظلال بنت العنب (الخمر) وزقزقة العصافير تلك هى الصورة السحرية التى يصورها لنا ابن الطيب العلمى مؤلف الانيس المطرب :

أقول للمحبوب فى روضة والطل يسعى والثرى يشرب
زوج لبنت المكرم ابن السما فالطير فى منبره يخطب

وللربيع أوانه الذى يقترن فيه ركوب الخيل بركوب الازهار على قضبان الاشجار ، وتشدو فيه الطير فوق الغصون فتهتز هذه بدورها وكأنها ترقص على تغريدها تلك هى الصورة الجميلة التى تخيلها القاضى ابن زنباع فأداها ببعض أبيات من قصيدة يصف بها الربيع خير اداء :

أعريت خيلك صيفها وخريفها وشتاءها ، هـذا أوان ركوبها
أو ماترى الازهار مامن زهرة الا وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفقت على أفنانها تلقى فنون الشدو فى أسلوبها
تشدو وتهـتز الغصون كأنما حركاتها رقص على تطريبهـا

إلى غير ذلك مما لاأريد الاطالة به فى هذا الموطن .

فهذا الشعب الذى طبيعته فى أساسها غير عربية . والذى عربيته ليست أصيلة فيه ، لاينتظر منه التقعر فى اللفظ والتعمق فى المعنى ، ذلك التقعر والتعمق الذى قد يزرى بالآداب حين ارادة الحكم لها أو عليها وحين عقد الموازنة بين بعضها وبعض .

وانما المنتظر أن تكون لهذا الادب رقة كتلك التى نراها فى الرياض والازهار والاطيار ، وسلالة كسلالة المياه المنصبة خلال الجداول والانهار وجزالة كتلك التى تحكيها الجبال الراسيات ويمثلها البحر فى هيجانه وموجانه ... إلى غير ذلك

من فنون القول وصنوف المقول فيه بما يصور الطبيعة والبيئة والحياة ، ويعبر عنها أصدق تعبير . وهذا غاية ما نرجوه من أدب شعب عرف طبيعته فاستطاع أن يعبر عنها واستطاع أن يحسن ذلك التعبير .

(٢) الصدق : ويتجلى صدق هذا الادب فى أنه يتحرى الحقيقة على الخيال ، بل ربما كان خياله فى الواقع حقيقة ،لأنه يسبل عليه ثوبا من الصدق يصير به كأنه من الحقيقة فى الصميم . وهل الخيال إلا صورة صادقة للحقيقة تنعكس على مرآة العقل الصقيلة فلا نلبث أن ندرك الصلة بين الصورتين ، وأنها صلة قربى وشيجة . مثل الحقيقة والخيال فى هذا كمثل من يقف أمام المرآة .... لايلبث أن يوحد بين صورتيه : الحقيقة والتى يراها أمامه ، ثم لايلبث أن يدرك الفرق وكأنه لافرق .

إن هذا الادب معبر عن البيئة التى نبت فيها لانه يغنى ويشدو بطبيعة قدلانحصل عليها فى أى بلد من البلاد . فهذا البلد الذى يحب الفروسية من قديم الزمن ، نجد حبه لها لايدانيه الاحبه للأدب الذى يستطيع الاديب أن يجمع بينه وبين الفروسية فى حلبة واحدة ويقارن بين الاثنين فيعطينا صورة هى - بلابرهان - من صور المغرب الاقصى .

يجب على الاديب قبل التعبير والتصوير أن يقف أمام المنظر ، بل يجب عليه أن يطوف حوله وبين جنباته طويلا حتى يعطينا صورة حقيقية كالتى رآها وانطبعت بها نفسه . ولا جدال فى أن تصوير من رأى وجرب غير تصوير من سمع وقلد ، وأن تصوير ما انطبع فى النفس وتأثرت به غير ذلك الذى يعتمد على غيره

فها هوذا القاضى عياض ، قد رأى منظرا طبيعيا يتمثل فى خامات زرع بينها شقائق نعمان هبت عليها رياح ، فأخذ يصور ذلك بصورة يكفى أن يقال فيها : انه الخيال الذى يتفق والحقيقة : —

أنظر الى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيبـــة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

ويتجلى صدقه أيضا فى وصف الطبيعة المغربية الخاصة ، ووصف حياة المغاربة الممتازة عن غيرها . فهو مصور لها فى سرائها وضرائها : فى السراء يعبر بالتغريد

فى جنات الارض وبالتحليق فى أجواز السماء ، وفى الضراء يعبر بالنوح والتشجن باديا عليه الالتجاء والرجوع الى الله وهو اذا لم يجد وسيلة للتعبير فى تلك الايام السود عن تلك المحن والدواهى ، فقد يكون وقوفه عن السير والتقدم ضربا من هذا التعبير الصادق ، وهل الاضراب عن العمل فى الوقت الحاضر ، إلاوسيلة صادقة للتعبير عما يجول بالخواطر ؟

إن احكام التفكير واتقان التعبير ينتجان حسن الاداء ، وهو الادب الحى الذى لا يموت

عصور ادبنا المغربى

لقد جرت عادة المؤرخين والأدباء ، أن يقسموا العصور على حسب الانقلابات السياسية والحركات الهائلة التى تمر بالشعب فى حياته التى يحياها . وإذا كان المؤرخون محقين فى هذا التقسيم فى معظم الأحيان ، فان الادباء قد لايكونون كذلك فى بعض الأحيان . فليس للأدب عمر خاص ينتهى بانتهاء أجله كالانسان ، وليس له حياة تابعة لغيره فيحيا بحياة الدلة ويموت بموتها . وانما هو فى طريقه يواصل السير مادام لاتصدمه عقبات فى تاريخ الدولة الجديدة .

وعلى هذا الأساس الذى لايعتبر الانقلابات السياسية فروقا أساسية بين بعض العهود وبعض ، سندمج عهد دولة بنى أبى العافية ودولة مغراوة وبنى يغرن فى عهد الأدارسة الذى استغرق زمنا أطول مما استغرقته الدولتان اللتان تلتاه ، والذى كان عرق الادب فيه ينبض بماء الحياة ، كما سندمج عهد المرابطين فى عهد الموحدين ، وعهد بنى وطاس فى عهد بنى مرين[1] . وهناك عصران مستقلان قائمان بذاتهما هما : عصر السعديين وعصر العلويين . فتكون عصور الادب على هذا خمسة ، سنفرد كل عصر منها بكلمة تبين حال الأدب فيه بوجه عام :

---

(١) عهد الادارسة : (١٧٢ ـ ٣١٣ هجرية) آل أبى العافية : (٣١٣ ـ ٣١٢) المغراوة وبنى يغرن : (٣٦٢ـ٤٠٠) المرابطين : ٤٠٠ـ٥٦٤)الموحدين : (٥١٤ـ٣٦٢) مرينيين : (٦١٠ ـ ٨٧٦) الوطاسيين : (٨٧٦ ـ ٩١٥) .

(ا) عصر الأدارسة بما فيه عهد الدولتين التاليتين (١٧٢ — ٤٠٠ هـ) :

إن المولى إدريس بن عبد الله هو أول من استقل بالمغرب، عن الخلافة العباسية بالمشرق، فأسس هناك أول دولة عربية . وان مالاقاه من ضروب التكريم والمؤازرة ، جعله يصلح من المغرب وأهله . وجعله يستولى على المغرب الاوسط من أول سنة ؛ مما قضى على هرون الرشيد بالخوف من بسط يد هذه الدولة الفتية على ما كان تحت ظل الخلافة العباسية ، فأنفذ له من قضى على حياته بالحيلة والسم الناقع

إن خبر هذه الدولة مسجل على صفحات التاريخ بماء الفخار ، فليرجع اليه من شاء التوسع ، وانما نريد الوصول هنا الى القول بأن حركة الفتوح هذه التى قام بها ادريس وابنه الاصغر من بعده (١٨٨ — ٢١٣) ، لم تكن لتلفت الدولة عنها الى الناحية الادبية وانما كان همها توطيد مركزها أولا وقبل كل شيء .

ثم ان حدوث الفتنة بين أبناء ادريس الاصغر ، وتقسيمهم المغرب إلى مناطق حكم بينهم حسب اقتراح جدتهم السيدة كنزة ، كل هذا مهد السبيل إلى قيام دولة آل أبى العافية الجديدة على أنقاض الدولة الادريسية ، بعد حروب استمرت بين الطرفين ، وظل فى بعضها الحسن (٣١٠ — ٢١٣) (من أسباط المولى ادريس) يطعن فرسان هذه الدولة فى المحاجم الواحد تلو الآخر حتى لقب « بالحجام » كما يقول الشاعر :

وسميت حجاما ولست بحاجم ولكن لطعن فى مكان المحاجم

وظل موسى ابن أبى العافية مؤسس الدولة الجديدة (٣١٣ — ٣٤١) يطارد الادارسة حتى طردهم من فاس (عاصمتهم الرئيسية) فالتجأوا الى بنى عمهم بالريف فيما يعرف بقلعة حجر النسر ، ولكن هذا الطاغية حاصرهم أيضا هناك. وأراد استئصالهم لولا أن أكابر دولته لم يوافقوه على قطع دابر أهل البيت من المغرب فاستحيا عند ذلك وارتحل عنهم الى فاس مقر حكمه . ثم ما لبثت دولة زناتة من مغراوة وبنى يفرن أن تظهر فى أفق المغرب حتى عج هذا الافق بدخان الحروب والفتن الداخلية الطاحنة .

وما نريد فى هذه العجالة احصاء الفتن والاضطرابات التى حصلت بين الدول

الثلاث المتعاقبة ، وانما نريد اضافة أنه طوال وجود الدولة الفاطمية (التى ظهرت سنة ٢٩٧ ﻫ أواخر القرن الثانى الهجرى) بافريقية (تونس) والنزاع قائم بينها وبين الدولة الاموية بالاندلس على المغرب الاقصى .

هذا هو العصر الاول الزاهر لا بفنون الآداب ولكن بفنون الحرب والقتال فما عسى أن يكون مركز الادب فيه . بل ماذا ينتظر من أمة هذا شأنها فى التقلب والانقسام على نفسها . وفى التشوق للحكم على أيد مختلفة ! لاينتظر منها بالطبع أن تبرز فى الاداب والعلوم والفنون بقدر ما برزت فى فنون الطعان وعلومه وآدابه ان كانت للطعان آداب .

إن هذا العصر مبكر بالنسبة لاولئك البربر (السكان الاصليين) الذين لم يتغلغل فيهم الروح العربى ، ولا الثقافة العربية كل التغلغل . صحيح أنهم تقبلوا الاسلام بصدر رحب ، يوم أشربوا فى قلوبهم بشاشته التى خالطت منهم اللحم والدم ، فكانوا أول سلاح لنشر دين التوحيد فى ربوع الاندلس . ولكنهم سرعان ما رجعوا الى أنفسهم فظلوا ينقبون بين خفاياها كى يجدوا لها منفذا الى الحكم ومباشرة السلطه الزمنيـة ، ان لم يكن فى ظل دولة حالية . ففى ظل دولة جديدة يسعون فى انشائها ، مادام لهم الحق فى هذا بصفتهم أعضاء فى هذا المجتمع الإسلامى الجديد . ان هذه الحروب والفتن لاتشغل الادباء عن التفكير والانتاج فحسب ، ولكنها قد تقضى عليهم القضاء المبرم

وعامل آخر من العوامل التى ساعدت على خمود الأدب فى هذا العصر ، هو أن عدد العرب كان به قليلا نسبيا لايكاد يؤثر فى العقلية البربرية السائدة . إن البلاد كانت فى حاجة ملحة الى رسل الثقافة العربية ينشرون لواءها فوق هذه الاراضى الممتدة فى مدة أقل وبصفة أسرع . ولكن امداد هذه البلاد بالمهاجرين العرب وبرسل الثقافة العربية ، لم يكن متوافرا ؛ ذلك لان خط السير للهجرة كان متجها غالبا الى الاندلس المزدهرة ، ولان الانسجام التام لم يكن قد حصل بعد بين هذين القطرين الشقيقين .

ويجب ألا ننسى ذلك الثغر الجميل (سبتة) الذى ظل يحمل مشعل الثقافة

العربية فى حين كان المغرب جله فى ظلام دامس.

ولم نقل كله لأننا استثنينا القاعدة الادريسية (فاس) فالراية الأدبية فيها ظلت تخفق فى زميلتها (سبتة).

إن موقع سبتة على البحر المتوسط (الرومى) وقربها من العدوة الاندلسية جعلها محطاً لرحال كثير من الأدباء والعلماء أولا، وسوقا رائجة للأدب والعلم ثانيا. ولو لم تكن حركة هاتين المدينتين الادبية مقصورة عليهما بالذات نظرا للحروب والفتن الداخلية، لكانت هناك وجهة نظر أخرى فى الحكم على أدب هذا العصر وهو أنه لايسر الناظرين إن لم يكن يحزنهم؛ ولكن الذى يخفف وقع هذا الحكم على النفس هو أنه منصب على المجموع لا الجميع.

(ب) عصر الموحدين بما فيه عهد المرابطين (٤٠٠ — ٦١٠)

أما وقد حكمنا على العصر المتقدم بالانحطاط النسبى فلا غرابة فى أننا سنضطر الى فترة انتقال بين عصر الخمود وعصر الحركة، ولا غرابة أيضا فى أن تكون هذه الفترة هى مدة حكم المرابطين.

وهى وان كانت طويلة إلا أنها كافية فى بعث الأمن والطمأنينة فى أرجاء البلاد وفى ايقاظ الروح الأدبى والعلمى فيها.

ولكى يرقى أدب هذا العصر فانه اتخذ سلما ومتكأ يصل به الى مايبغيه من درجات الكمال والرقى. هذا السلم أو المتكأ هو الأدب الاندلسى؛ فلقد تأثر الأدب فى عهد المرابطين، بالأدب الاندلسى تأثرا شديدا، كما تأثر أدباء هذا العهد بأدباء الاندلس أيضا. ذلك لأن الاتصال بين الطرفين كان قائما، ولأن الحركة الأدبية بالأندلس كانت مزدهرة تؤتى أكلها كل حين.

ان الشعور بالنقص لهو الشعور بالواجب فلا عجب أن يكون التقليد والمحاكاة هى الخطوة الاولى فى سبيل اداء هذا الواجب. وهى خطوة طبيعية يخطوها كل من آمن بوجوب مسايرة الزمن وأهله، إن لم يكن فى مقدمة القافلة ففى وسطها على الأقل

ومما دعا الى اتباع هذه الخطة خطة التأثر بالادب الاندلسى — زيادة على الاتصال المباشر — ما كان يغلب على الدولة المرابطية من صبغتها الدينية. ونحن نعلم أن نهضة عبدالله بن ياسين من رؤساء هذه الدولة كانت دينية محضة أساسها

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى الله حق جهاده ، نعلم ذلك من نفس التسمية التى كان سببها مرابطة عبدالله مع أصحابه الثمانية فى جزيرة يعبدون الله فيها بعد أن كاد ييأس من اتباعه فى غيرها فكانت هذه المرابطة خير دعاية لجلب الناس واستمالتهم فكان النجاح فى المهمة وكانت الدولة ولقد تعب الناس فى محاولة معرفة السبب الذى من أجله دعوا بالملثمين أيضا الى أن أتى الشاعر فعبر عن الحقيقة الواقعة أو أنه هدى الناس إليها إذ قال :

لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا

وما دامت الدولة مصبوغة بالصبغة الدينية فلا غرابة فى أن تصطبغ بها النهضة أيضا ، ولا غرابة كذلك فى أن تقرب الدولة العلماء والفقهاء على غير علم من الأدباء والشعراء ، وذلك على الرغم مما جادت به قرائح هؤلاء من مدائح راحت ضحية فى سبيل العلم .

هذه الروح الدينية لم تكن متعمقة ذلك التعمق الذى تنشأ عنه الخلافات المذهبية والآراء المتضاربة التى كانت سببا من الاسباب التى فرقت شمل الوحدة الاسلامية بالمشرق ، وانما كانت يسيرة يسر الاسلام ومبادئه ، ومشبعة بروح السلف الصالح وذلك قبل أن يتألق — فى آخر هذه الدولة — نجم جديد كان فيما بعد مؤسس دولة الموحدين ؛ ونعنى به محمد بن تومرت المعروف بالمهدى

ذلك النجم الذى كان شروقه بالمشرق وأبى غروبه بالمغرب قبل أن يؤدى رسالته على الوجه الأكمل ، فلقد طاف بالبلاد الاسلامية الشرقية ولقى تقديراً من رجالها أمثال أبى حامد الغزالى وقدم منها مزوداً بمعارف جديدة ، وبطريقة الاشعرى فى تفسير القرآن ، تلك الطريقة التى لم يرو فيها حرفا واحداً عن المفسرين وانما اعتمد على ما كان يختلج به صدره ، فلم يكن بالمغرب الاسلفيون يمرون بالمتشابهات مرور الكرام ، إلى أن أتى (المهدى) فحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الاشعرية .

وكان المهدى — رغم بربريته التى كان يؤلف بها — فصيحا لسنا يستميل الجماعات بألفاظه العذبة مما حدا أمير المسلمين على بن يوسف بن باشتين ٥٠٠ ٥٣٧

أن يعقد مناظرة بينه وبين علماء حضرته ، فكان يسكتهم جميعا ويخجلهم ولولا اعجاب الامير به غاية الاعجاب لما سلم من أذاه ولاسيما أن وزيره (مالك بن وهيب) حرضه على قتله قائلا : هذا رجل مفسد لاتؤمن غائلته ، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال اليه .

فأمثال هذه المناظرة ان كانت تدل على شيء فانما تدل على أن دولة الادب صارت فى رهان واحد مع دولة الفقه والعلم وبينما نرى فى عهد الدولة المرابطية من يتلبس بلباس الفقهاء كى يصل المناصب العالية ويتولى الوزارة كما حصل من مالك بن وهيب الآنف الذكر ، نرى فى عهد دولة الموحدين من ينهض الى الوزارة على أكتاف الدولة الادبية ، وذلك كان جعفر بن عطية المتوفى سنة ٥٥٢ الذى كان يصاحب أميره عبدالمؤمن بن على فى غدواته وروحاته ، والذى اتفق مرة أن صاحبه الى بعض بساتين مراكش ، وبينما هما فى طريقهما اذا بوجه جارية يطل من شباك ، وكانه الشمس الضاحية فنظر اليها الامير فأعجبه حسنها فقال ارتجالا :

قدت فؤادى من الشباك إذ نظرت

فقال ابوجعفر : حوراء ترنو الى العشاق بالمقـــل

فقال عبدالمؤمن : كانما لحظها فى قلب عاشقها

فقال أبوجعفر سيف المؤيد عبد المؤمن بين على

هذا الأديب الذى ندم الامير عليه بعد الايقاع به بسبب ذنب لم يغفره له . فلقد جمع الشعراء وأراد أن يمتحنهم بهجوه فلم يشفوا غليله فقال كلمته الخالدة : « ذهب ابن عطية وذهب الادب معه »

ولعل نظرة الدولة الموحدية إلى الادب نظرة العطف والتشجيع مما ساعد كثيرا على ازدهار الأدب فى هذا العصر ، إذ كان عبدالمؤمن منحة من الزمن وجمع الى حسن سياسته حسن التصرف فى الادب وفنونه . ولقد مدحه محمد بن أبى العباس السمعانى ببيت استعاده منه مرارا وأمره بأن يقتصر عليه قائلا له : لقد قلت فى هذا كل شيء . وأجازه عليه بألف دينار ولعل النفس تتشوف الى هذا البيت :

ماهز عطفيه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبدالمؤمن بن على

ولقد أورد صاحب المعجب فى وصف احتفاله ببيعة أهل الاندلس له على

ظهر جبل طارق الذى سماه هو «جبل الفتح» ما أورد بعضه قال: وكان يوم عظيم اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والاندلس مالم يجتمع لملك قبله. واستدعى الشعراء وكان على بابه طائفة أكثرهم مجيدون فكان أول من أنشده أبو عبدالله محمد بن حبوس من أهل فاس قصيدة أجاد فيها ما أراد قال فيها:

بلغ الزمان بهديكم ما أملا   وتعلمت أيامه أن تعدلا

وبحسبه ان كان شيئا قابلا   وجد الهداية صورة فتشكلا

وأنشده ابن الشريف المعروف بالطليق المروانى:

ما للعدا جنة أوقى من الهرب

فقال عبد المؤمن: إلى أين؟ الى أين؟ رافعا بها صوته فقال الشاعر:

أين المفر وخيل الله فى الطلب؟

وأين يذهب من فى رأس شاهقة   وقد رمته سماء الله بالشهب

حدث عن الروم فى أقطار أندلس   والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال عبدالمؤمن: بمثل هذا تمدح الخلفاء.

وأنشد ابن سيد الاشبيلى الملقب باللص:

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل   وانظر إلى الجبل الراسى على جبل

انى استقر به؟ انى استقر به؟   أنى رأى شخصه العالى فلم يزل

فقال له عبدالمؤمن: لقد أثقلتنا يارجل، فأمر به فأجلس.

إلى غير ذلك مما لانزيد به استقصاء وانما مجرد تمثيل فحسب. هذه نظرة هذا الخليفة إلى الادب والأدباء. أما نظرته الى العلم والعلماء، فتتجلى فى أنه أمر فى سنة ٥٥٠ هـ بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة واستنباط الاحكام منها، ثم كتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة. إن النهضة التى حظى بها الفقه فى الدولة المرابطية أنتجت كثرة المحصول مما حدا بأميرنا أن يقوم بحركة التطهير هذه. ولا ريب فى أنه لم يحمله على هذا إلا حبه للبحث والاستطلاع من جديد، ثم حبه لرقى العلم والأدب معاً.

لقد أصبح الأدب المغربى الآن قائما بنفسه بعد ما كان يعتمد على أخيه الاندلسى فى تخطى العقبات التى كانت تعوق سيره واطراده فى النمو بين حين وآخر ولم تكن غضاضة على العقلية المغربية فى هذا ، مادام أغلب الشعب كما تقدم من العنصر البربرى ، وصعب على هؤلاء أن يطفروا أو يصلوا القمة سراعاً فى آداب هى فى الأصل ليست آدابهم ؛ وانما التعلم بالتعليم .

ولقد استطاع الادب المغربى أن ينهض من كبوته التى أصابته من جراء غلبة النهضة العلمية عليه أول الامر ، كما استطاع آخر الامر أن يتسابق فى مضمار واحد مع آداب عصره . فلم يعد يتأثر بأدب الأندلس إلا كتأثره بأدب غير الاندلس . بل الحقيقة أنه لم يبق مجال للتأثر الآن ، لأنه خلفه مجال آخر جديد هو مجال المنافسة الادبية بين القطرين .

عصر المرينيين بما فيه عهد الوطاسيين (٦١٠ — ٩١٥)

إن ارتباط الأدب بالعلم ونهضتهما معا يجعلان الأدب فى القمة ، ويجعلان الانتاج الادبى فى أعلى درجة من سلم الرقى الفكرى فلا تخاف على مركز الأدب فى هذا العصر المرينى ، بل لانخشى شيئا إذا قلنا أن سنة النشوء والارتقاء (سنة الله فى أرضه) ظلت مطردة لم تقم فى وجهها عقبات تعوقها عن السير والنمو الطبيعى .

ولقد كان التقدم شاملا فى جميع ميادين الادب والعلم ، فحركة التطهير فى الكتب الفرعية فى العصر الموحدى لم تؤت أكلها فى ذلك العصر وحده وفى دائرة العلم المحدودة فحسب ، وانما كانت لها اليد الطولى فى سبيل رقى الأدب فى هذا العصر التالى .

ان الوسط الادبى فى هذا العصر كان على غاية من العلو اشترك فى بنائه جميع الطبقات من السوقة إلى الملوك . ولقد أغرى هذا الوسط الفكرى الراقى كثيرا من ذوى الحيثيات وأرباب الشخصيات الادبية فجعلهم يؤمون حواضر المغرب ومدنه التى لها يد فى تمكين العرش الادبى . وجعل أمثال ابن الاحمر وابن الخطيب وابن خلدون يأوون الى كنف الدولة المرينية ويستظلون بظلها .

إن هذه الدولة عربية الأصل تمت إلى قيس عيلان ، فلا نعجب إذا كانت خدمت المغرب خدمات جليلة فى ظل لواء الاسلام وفى دائرة العروبة المجيدة . ولا نعجب أيضا إذا رأينا الامتزاج والانسجام التام بين العرب والبربر وفناء الجميع فى سبيل المصلحة العامة وفى خدمة الوطن الذى يحبه الجميع .

وان هذه النظرة العربية الاسلامية لتعيد إلى الأذهان ماكان من عز الاسلام ومجده الذى لايفنى . وهذه النظرة يعبر عنها أحسن تعبير الأمير عبد الواحد المرينى بقوله :

فرقت فى الميدان كل مليك وجمعت بين جراءة ونسوك
وجعلت للاسلام حداً مالكا كيلا يعيره العدا بسلوك

وهاهو ذا السلطان أبو عنان المرينى (٧٤٩ — ٧٥٩) يعطينا صورة عن طريق غير مباشر لما يجب أن يكون عليه أمير المسلمين أو الرئيس اطلاقا :

وإذا تصدر للرياسة خامل جرت الأمور على الطريق الأعوج

إن القوة الأدبية لتسير جنباً إلى جنب مع القوة السياسة فى هذا العصر ، فكانت الدولة السياسية على أشد ماتكون قوة وصولة ، وكانت الدولة الأدبية تجاريها فى هذا أيضاً مع العلم بأن صولة الأدب هى ازدهاره وعظمته . وإذا كان الملوك قد اشتركوا فى الحركة الأدبية وفى أعلاء بنيانها ، فلا ندهش إذا ما أنتج لنا الأمير أبو الحسن المرينى مثل هذه الموشحة اللطيفة :

مطلع : فى نغمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم
أطال من لامنى خلافه فظل فى نصحه مليم

دور : دعنى على منهج التصابى ما قام لى العذر بالشباب
ولاتطل فى المنى عتابى فلست أصغى إلى عتاب
لاترج ردى إلى جواب والكاس تفتر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه إذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافة واختال فى برده الرقيم ..

وتصل أبياتها الى خمسة وعشرين بيتا عدا المطلع (انظرها فى نفح الطيب ص ٢٢١

ج ١) وفى هذا العصر بدأ تكون الشعر العامى الذى ظن بعضهم أنه كل أدب المغرب أو أنه يعطى صورة حقيقية منه : وهى صورة مهما اعتبرناها صادقة لا تدل إلا على أن الشعب المغربى أراد أن يعبر عن حياته اليومية فراح ينشد الشعر بلغته العامية على منوال الشعر العربى الفصيح فى أوزانه وبحوره وأغراضه .

إن هذا الشعر العامى كان يسير فى ركاب واحد مع زميله الفصيح ، فلقد تعددت مناحيهما وأغراضهما حتى أنهما ليعطيانا صورة حية للحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى فى ذلك العصر .

وكان من فحول هذا اللون من الادب ابن شجاع وهو من أهل تازا ، على ابن المؤذن سلمان ، والكفيف وهو من زرهون .

ومما قال ابن شجاع فى قصيدة وهو يصف حالة اجتماعية خطرة

المال زينة الدنيا وعز النفوس ... يبهى وجوها ليس هى باهيا

فها كل من هو كثير الفلوس ... ولوه الكلام والرتبة العليا

يكبر من كثر مالو ولو كان صغير ... ويصغر عزيز القوم إذا افتقر

من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يصير ... يكاد ينفقع لولا الرجوع للقدر

حتى يلتجى من هو فى قومو كبير ... لمن لا أصل عندو ولا لو خطر

ومن مقطوعة له يصف لنا الحب الخائن :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان ... أهمل يافلان لا يلعب الحسن فيك

مامنهم مليح عاهد إلا وخان ... قليل من عليه تحبس ويحبس عليك

يهبوا على العشاق ويتمنعوا ... ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال

وان واصلوا من حينهم يقطفوا ... وان عاهدوا خانوا على كل حال

مليح كان هويت لو وشت قلبى معو ... وصيرت من خدى لقدمو نعال

وأما الشاعر الكفيف فلقد ابدع فى مذاهب هذا الفن ، ولقد وصف رحلة السلطان أبى الحسن وبنى مدين إلى افريقية (تونس) يذكر هزيمتهم بالقيروان ويعزيهم بما وقع لغيرهم ، يقول فى مفتتحها وهو من أبدع مذاهب البلاغة فى

الاشعار بالمقصد فى مطلع الكلام ويسمى براعة الاستهلال .

سبحان مالك خواطر الامرا ونواصيها فى كل حين وزمان
إن طعناه عطفهم لنــا قسرا وان عصيناه عاقب بكل هوان

وهى مقطوعة طويلة جداً تشبه أن تكون ملحمة ، وقد ذكر بعضها فى (المقدمة).
وكان هناك نوع من الشعر تشوبه روح الفكاهة ، بما يتفكه به الادباء فى مجالسهم أو يداعب فيه الصديق صديقه . فهاهو مالك بن المرحل يداعب شيخوخته بهذين البين :

يا أيها الشيخ الذى عمره قد زاد عشرا بعد سبعينا
سكرت من أكواس خمر الصبا فحدك الدهر ثمــانينا

ولابى عبد الله المكودى وقد بعث له بعض أخوانه بشراب مذيق أى ممزوج ماء :

بعثت بخمر فيه ماء وإنمــا بعثت بماء فيه رائحة الخمر
فقل عليه الشكر إذ قل سكرنا فنحن بلا سكر وأنت بلا شكر

إن شعراء هذا العصر وأدباءه الكثير يعجز المقام والوقت عن حصرهم ، ولكن لابد لنا من أمثلة من الشعراء ونماذج من شعرهم كى ندعم بها القول فنقول : قد تقدم القول بأن العرش الادبى فى هذا العصر اشترك فى تمكينه جميع الطبقات على السواء . وتقدم كذلك رأى الزجال ابن شجاع فى الحب والهوى ولكنا نرى أن السلطان أبا العباس المرينى يخالفه فى الرأى مخالفة تامة ، وقد لا نستطيع لهذا تعليلا اللهم إلا إذا كان هوى السلطان سلطان الهوى :

أما الهوى ياصاحبى فألفته وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها فتخذته ديناً إلى ومذهبا
ولبست دون الناس منه حلة كان الوفاء لهــا طرازاً مذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصا لامرحباً بفراقنا لامرحباً

وبمناسبة ذكر الفراق نورد بيتين لابن هانىء السبتى فى النوى قال مورياً :

ماللنوى مدت لغــير ضرورة ولطالما عهدى بها مقصورة

إن الخليل وإن دعته ضرورة لم يرض ذاك فكيف دون ضرورة

إن سبتة بما انتجته من فحول الادب لتستحق أن تسمى « بمصنع الأدباء » ولعل الطبيعة قد أعدتها لتكون كذلك . ويكفيها فخراً أن تنجب أمثال مالك بن المرحل الذى يقول فى وصفها :

احطر على سبتة وانظر الى جمالهـــا تصبو إلى حسنه

كأنها عود غنـــاء وقد ألقى فى البحر على بطنه

ذلك الشاعر الذى قاسى من محبوبه ماجعله يفكر فى رفع الدعوى عليه أمام محاكم الحب ، وماذا كانت تكون النتيجة لو وجدت هناك محاكم للحب حقيقة ؟ الحكم فى هذا للقضاء ! وان كان الظاهر أن حجج المدعى قوية :

شكيت لقاضى الحب ، قلت : أحبتى جفونى وقالوا أنت فى الحب مدعى

وعندى شهود بالصبابة والاسى يزكون دعواى اذا جئت أدعى :

سهادى وشوقى واكتئابى ولوعتى ووجدى وسقمى واصفرارى وأدمعى

ومن عجب أنى أحن اليهم وأسأل شوقا عنهم وهم معى

وتبكى دما عينى وهم فى سوادها ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعى

ولولا ضياع شعر هذا الشاعر الذى اعترف ابن خلدون بشاعريته على تحفظه المعهود فى اصدار أحكامه لعرفنا عنه الشىء الاكثر .

وأقول . ان المغاربة لازالوا مرضى بحب الكتب وملء الخزانات بالمطبوعات والمخطوطات النادرة، ولو ساعدوا على نشرها لكان الادب المغربى – أولا وبالذات – ملء الافواه والاسماع ، ولكان للنظريات العلمية المغربية – ثانيا – كراسى فى معاهد العلوم الحديثة على اختلافها .

وخلاصة القول أن الادب فى هذا العصر كان مرآة صافية لحياة الشعب ترتسم عليها عواطفه وميوله أكثر منه فى أى وقت مضى . فللحقيقة دون الخيال والوضوح دون التعمق المقام الاول ، كما أن للرقة فى غير ضعف والجزالة فى غير عنف مثل ذلك المقام أيضا .

وليت الامر يقتصر على هذا الحكم العادل فيحتفظ الادب بمركزه ، ولكننا نرى عهد بنى وطاس الذى تلا هذا العهد المرينى والذى أدمجناه فيه وكونا منهما عصرا واحدا ...، نراه عهد فتن وحروب لم يكد المغرب يذوق فيه طعم الراحة والطمأنينة ، ولم يستغرق هذا العهد لحسن الحظ زمنا طويلا ، فلم تلبث العناية الالهية أن أغاثت المغرب بالزعيم الذى أسس الدولة السعدية . فأعاد السلام والأمن الى البلاد ، كما قضى على الفتن والحروب التى كادت تقضى على دولة الادب ،

(د) عصر السعديين (٩١٥ — ١٠٥٠)

ان سنة النشوء والارتقاء كانت تكون مطردة لولا مايعوقها عن هذا الاطراء من حين لآخر . ولولا هذه العوائق لظل الادب مزدهرا سائرا فى طريقه لاشىء يعوقه .

لقد كانت الدولة الوطاسية — كما تقدم — أشغل من ذات النحيين مع أعدائها الداخليين والخارجيين ، فلا بد اذن من أن يشغل الادب والادباء شاغل أيضا وسط هذه الزعازع الهوجاء ، والامواج المتلاطمة ، الى أن يبعث اللطف الالاهى من يقود سفينة الادب الى شاطىء السلامة أولا ، ثم من يقوم بعمليات اسعاف للأدباء ثانيا حتى يفيقوا من غشيتهم فنطمئن على السفينة وعلى سلامة الركاب .

لقد قدم بمقدم الدولة السعدية الامن والسلام يرفرفان باجنحتهما على ربوع المغرب ، فعاد للادب تبعا لذلك حيويته وقوته ، وعاد يحلق بجناحيه من جديد فى أجواز السماء

ولعل مما يصور لنا الحركة الادبية فى أجلى مظاهرها تلك الخصومة الادبية التى تقوم بين الادباء بين حين وآخر . والتى تكون بين اثنين ثم تتشعب الى ثلاثة فينقسم الرأى العام الادبى حسب هذا التشعب فيتعصب كل فريق الى رأيه ومن ورائه أعوانه وأنصاره . وعلى هذا الاساس قامت خصومة أدبية فى مسألة الهيللة (لا إله إلا الله) وهل الحق سبحانه يدخل فى المنفى بلا ؟ وهل تنتفى بها ألوهية الصنم وغيره مما يعبد بغير حق ؟ وقد لا يسمح الوقت ولا المقام بتبيين وجهة نظر كل واحد من أركانها

الثلاثة · الامام الخروبي (٨٩٧ - ٩٥٩) واليستثني (٨٦٧ - ٩٥٩) والهبطي توفي سنة ٩٦٣، وإنما يسمح الوقت والمقام بأن نقول . إنها كانت على غاية من العنف والحدة حتى أراد السلطان (الشيخ السعدي ٩٤ - ٩٦٤) أن يتدخل فيعقد مجلسا للمناظرة بين الثلاثة ولكن الهبطي لم يرد الدخول فيها فلم يجد تدخل السلطان فيها شيئا . ولقد تعصب كل لرأيه وألفت في المسألة رسائل ، وظلت موضع نزاع شديد بين الطلبة وعلماء الكلام حتى أتى العصر العلوى فتصدى لها أبو على اليوسى وألف كتابا قيما اسمه « مناهج الخلاص من كلمة الاخلاص » ويظهر أن اليوسى كان رائده الاخلاص فكان النصر حليفه في حل الاشكال ومن كلامه في كتابه قوله : واذ قد تعرضنا لكلام هؤلاء الأئمة فلا بد أن نتصفحه بعض التصفح ونشير الى ماعند كل واحد في كلامه عما لا بد من الاشارة اليه والتنبيه عليه معطيا أن شاء الله كل ذى حق حقه ومعطيا أيضا الحق حقه فان لحوم العلماء مسمومة والصدع بالحق سنه معلومة ... الخ

وقد يقال إن هذه المناظرة أقرب إلى التوحيد منها إلى الأدب . والجواب على هذا هو أن الأدب لايعرف الحدود والقيود أو أن الأدب هو الاتساع في العلوم كما يقول ابن قتيبة .

إن عهد أحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ - ١٠١٢) (من ملوك هذه الدولة) كان عهداً ذهبيا بالنسبة الى دولة الأدب ، فلقد كان بلاطه طافحا بالعلماء والأدباء من كل صوب وحدب وعلى رأسهم المقرى صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهما . ولقد اتفق مرة أن ضم مجلسه ثلاثة أشخاص : مكى ، مدنى ، مقدسى ، فقام المكى وقال : يا أمير المؤمنين ! إن المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال قدشد أهلها اليك الرحلة وأنشد : —

إن أمير المؤمنين أحمد بحر الندى وفضله لا يجحد
فطيبة ومكة أهلهما والمسجد الأقصى بذاك تشهد

ثم قال : أنه لم يتفق هذا لملك قصدت إيالته . قال المقرى (راوى الحكاية) :

فتبسم لذلك أيده الله وأجزل لهم العطا ، دأبه بكل وافد عليه من أى بلد كان . لقد كثر عدد النوابغ فى هذا العصر فى ظل هذه الدولة الوريف ، وذلك بفضل تشجيع الدولة للأدب واقبال السلاطين أنفسهم على التأدب . فها هو ذا المنصور وها هو ذا غزله : —

حرام على طرف يراه منام وحل لجسم قد جفاه سقام
وكيف بقلب فى هواه مقلب وأنى له بين الضلوع مقام
فياشادنا يرمى الحشا أنت بالحشا أما لمحل أنت فيه ذمام ؟

وإذا كان الأمر كذلك بأن كان للمنصور سلطتان : أحداهما زمنية والاخرى أدبيه فلا غرو فى أن يشرك معه فى سلطته الزمنية زعيم الادب فى ذلك العصر ونعنى به الوزير عبد العزيز الفشتالى (توفى سنة ١٠٣٢) ، ذلك الاديب الذى يقول عنه المنصور نفسه : أنا نفتخر به على ملوك الارض ، ونبارى به لسان الدين بن الخطيب ومنزلة ابن الخطيب غير خافية على أحد فهو إمام النظم والنثر فى الملة الاسلامية غير مدافع كما يصفه ابن خلدون بالحرف الواحد . وأما منزلة الفشتالى فاذا تركنا شهادة المنصور جانبا وأقبلنا على هذين البيتين فقط من شعره استخلصنا منهما حكما يتفق ومكانته العالية فى رقة الاحساس وجودة النسيب :

حين أزمعت عند خوف البعاد وعدتنى من الفراق العوادى
قال صحبى وقد أطلت التفاتى أى شىء تركت قلت فؤادى

ولقد كان من دواعى القول تلك المناسبات (من حفلات ومواسم وأعياد) التى كانت تقام فتكون غذاء صحيا لفنون النظم والنثر . ومن هذه الاعياد التى بدأت بالمغرب وتكررت ولازالت الى الآن عيد المولد النبوى . ذلك العيد الذى كانت تتكرر به المباريات الشعرية بتكرر السنوات ، ومن هذه القصائد قصيدة لصاحبنا الفشتالى وهى تربو على المائة بيت يقول فى مطلعها :

هم سلبونى الصبر والصبر من شانى وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى

إلى أن يتخلص من مدح النبى صلى الله عليه وسلم الى مدح المنصور ثم يختتمها بقوله :

وهاتيك أبكار القوافى جلوتها تغازلهن الحور فى دار رضوان
أتتك أمير المؤمنين كأنها لطائم مسك أو خمائل بستان
تعاظمن حسنا أن يقال شبيهها فرائد در أو قلائد عقيان
فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها وللدين تحميه بملك سليمان
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزراً تقادلك الأموال فى زى عبدان

ثم ها هى ذى صحة المنصور وقد انحرفت قليلا فتنحرف لذلك صحة العالم ولكن رب العالم شاء أن يبل عالمه من علته بمجرد إبلال المنصور من مرضه ، ذلك هو ما يعبر عنه النابغة الهوزلى :

تردى أذى من سقمك البر والبحر وضجت بشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى عليك مسهدا وأصبح مذعورا الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التى أفاق بها من غمه البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها وعاد الى ابانه ذلك البشر
وصار بك الاسلام فى كل بلدة يهنا ويدعو أن يطول لك العمر

الى أن يقول .

بقيت لهذا الدين تحمى ذماره ويحميك رب العرش مابقى الدهر

هذه هى الناحية السياسية للمنصور نلتمسها فى تضاعيف الكتب وقصائد الشعراء وأما الناحية الادبية له فقد نلتمسها فى اختراعه أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد ألا يطلع عليه ، فاذا سقط الكتاب أو وقع فى يد عدو أو غيره لايدرى مافيه وهذا نموذج طيب ربما كان هو الاصل لحروف الشفرة ، المستعملة الآن . ولقد كان المنصور يتقن الخط المشرقى بازاء اتقانه الخط المغربى ، وحدث أن كتب بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتب سره أبى عبدالله بن عيسى يستدعى منه كتابا فبعثه اليه بن عيسى ومعه هذان البيتان

شقتنى كئوس السرور دهاقا خطوط اتتنى فى مهرق
رأت كف أحمد فى الغرب بحرا فجاءت اليه من المشرق

وكاتبه هذا هو مؤلف « الممدود والمقصود من سنا أبي العباس المنصور »قال المقرى : وهذه التسمية وحدها مطربة .

وكذلك عرف المنصور الرساله الادبية وقدرها حق قدرها ليس فقط فى حدود الدولة التى يرأسها وانما تعدى ذلك فالتفت الى الاقطار الشقيقة الاخرى والى توثيق الصلات الادبية بين بعضها وبعض وبين أدبائها الذين هم مصباح الهدى والوئام فى كل العصور

فلقد استجاز المنصور أدباء مصر الشقيقة فى ذلك العهد فأجازه الامام محمد بن أبى الحسن البكرى بفصول فى النثر يعجبنى منها قوله فى ختامها وقد أدرك غرض المنصور من توثيق العلاقات الادبية على الدوام . « فمولانا مجاز من هذا العهد ، من جميع ما يجوز لهذا العبد ، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عن أهل الامر ، وكذلك مجاز أهل العصر أجازة عام بعام ، ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام ، فانه السبب فى تحصيل ذلك المرام (وهى مؤرخة : ١٤/٤/٩٩٢ هـ)

وكذلك أجازة العلامة بدر الدين القرافى صاحب ذيل الديباج وغيرهما من الادباء والعلماء الاجلاء.

وأن ازدهار هذا العصر كالذى قبله وبعده فى مختلف فنون الادب والعلم لتجعل الباحث فى حيرة وارتباك لانه لايدرى ما يأتى وما يدع . ويجب ألا ننسى عاملا مهما من عوامل ازدهار الادب فى هذا العصر ، هذا العامل هو الزاوية الدلائية التى أخذت بضبع الادب آخر هذا العصر ، فلقد كانت حصنا حصينا للادب والعلم وأخذت على عاتقها أن تنشر العلم وتؤدى طلبته فتخرج على يديها عدد عظيم من الادباء والعلماء . ولكن هذه الزاوية كانت لها مطامع سياسية اثر انقراض الدولة السعدية فقامت بحروب مع مؤسس الدولة العلوية الشريفة فاضطرته الى تقسيم المغرب بين الزاوية والدولة ، الى أن أتى المولى الرشيد العلوى (١٠٧٥ - ١٠٨٢) فقضى عليهما القضاء المبرم كما سيأتى القول فى العصر الثانى

ان هذه الزاوية لتفخر بأنها كانت معقلا من المعاقل الحصينة للعلم والادب فى عهد ما ، وانها لتفخر كذلك بانها ظلت تمد العصر العلوى بزعماء الحركة الادبية زمنا غير يسير ، وذلك رغم انقراضها من هذا الوجود .

(ه) عصر العلويين (١٠٥٠ — ١٣٠٠) :

هذا هو آخر عصور الأدب المغربى التى أردنا الحديث عنها ، وهو وان كان يبدأ بقيام الدولة العلوية الحالية ، إلا أن الدراسة الأدبية لهذا العصر ستقف عند آخر القرن الثالث عشر الهجرى ولن تتعداه إلى اليوم . وماذلك إلا لأن مراجع البحث فى هذه الفترة معدومة بسبب الظروف الحاضرة ، على أنه قد تواتينى فرصة أتمكن فيها من المراجع ومن الكتابة إن شاء الله .

أما فيما يتعلق بحياة الأدب فى هذا العصر فانها ظلت تواصل سيرها قدما ، وعلى الرغم من الحوادث التى صدمت الحياة الأدبية فى أول هذا العصر عند القضاء على الزاوية الدلائية ، إلا أنها ظلت منتصرة على طول الخط .

المولى رشيد (١٠٧٥ — ١٠٨٢) : إن الرشيد فى قضائه على هذه الزاوية يغفر له فعلته هذه أمران :

(١) خوفه السياسى على دولته الجديدة وعلى وحدة المغرب الذى يجب ألا يتجزأ

(٢) إكرامه لطلبة العلم وأساتذته من أهل هذه الزاوية بعد الايقاع بها . فقد نقلهم جميعا الى العاصمة (فاس) ومن بينهم الاديب والعلامة أبو على الحسن اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ ، ذلك الأديب الذى يقول عن نفسه : لو شئت أن لا أتكلم إلا بالشعر لفعلت ، والذى رثى زاويته التى تخرج فيها بقصيدة تنيف أبياتها على الخمسين بعد المائة يقول فى مطلعها :

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا فيأبى ويعتاض العقيق بها خمرا

وإذا عرفنا أنه بكاها وقال فيها ماقال ، وهو فى أحضان الدولة التى قضت عليها ، عرفنا المقدار الذى كان يتمتع به الأدباء من حرية القول فى ذلك العهد . وذلك هو الأديب الذى يشرح لنا علاقة الزهر بالغيث فى أسلوب ساحر :

ان بين الغمام والزهر الغـــض لرحما قديمة واخاء
بان إلف عن إلفه فتوارى في الثرى ذا وذاك حل السماء
فاذا ما الغمام زارت جنابا ء اذنت فيه بالحبيب اللقاء
ذكرت عهده القديم فحنت عند لقياه فاستهلت بكاء
فترى الزهر بارزا من خبايا ه يحيي الوفود والاصدقاء
بادى البشر والبشاشة جذ لان لبوسا من كل لون رداء
ثملا من شمول شمس الضحى وهـــو على بسط سندس خضراء
راقصا والصبا تهنيه والور ق غوانى القيان تشدو غناء

أما اليوسى العلامة فيكفى أن يقول فيه أبو سالم العياشى (١٠٣٧ – ١٠٨٠هـ) صاحب الرحلة المعروفة :

من فاته الحسن البصرى يصحبه فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

المراد القول بأن طلبة العلم ورجاله ظلوا يدرسون ويدرسون العلم والأدب ، وظلوا يكرعون من مناهل الثقافة العذبة ، ويواصلون الدراسة تحت ظل من يناصر العلم والادب ويعاضدهما من ملوك هذه الدولة وأرباب البلاط فيها .

فالحمد لله على أن الحركة الادبية فى هذا العصر لم تكن أقل نشاطا منها فى أى عصر مضى . وكيف يموت الأدب وهذا الخليفة الرشيد يثيب على بيتين من الشعر قالها فيه شاعر جزائرى فيصله بألفين وخمسمائة أو خمسين ديناراً على رواية أخرى وهذا البيتان هما :

فاض بحر النوال فى كل قطر من ندى راحتيك عذبا فراتا
غرق الناس فيه والتمس الفقـــر خلاصا فلم يجده فماتا

انظر الى هذا الخيال البديع الذى يجعل من الفقر شخصا يبحث عن خلاصه من الغرق الذى هو نعمة وسلام على البلاد وأهلها ، ونقمة وحرب عوان على الفقر وحده ، ثم تكون النتيجة القضاء عليه قضاء مبرما ... حقا ان من الشعر لحكمة

أم كيف يموت الادب وهذا المولى محمد بن عبد الله (١١٧١ – ١٢٠٤)

يحتضن الادباء والشعراء ويحبوهم برعايته السامية ، فلقد ألف ابن الونان المتوفى سنة ١١٨٧ أرجوزته الشهيرة بالشمقمقية (لأن أباه كان صاحب نوادر وملح مع السلطان فكناه أبا الشمقمق) التى يقول فى مطلعها :

مهلا على رسلك حادى الأينق ولا تكلفها بما لم تطق

والتى يقول عنها صاحب الاستقصاء (١٢٥١ — ١٣١٥) : « إنها من الشعر الفائق ، والنظم البديع الرائق ، أبان منشئها عن باع كبير ، واطلاع غزير ، على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها ، بحيث أن من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الادب » (ص ١٢٢ ج ٤)

ولكن ماحيلة الشاعر وقد تعذر عليه الوصول الى السلطان صاحب أبيه ؟ لم يعد فى امكانه إلا أن يتحين فرصة خروجه فى موكب من مواكبه الفخمة فيصعد على نشز من الارض ويصيح :

ياسيدى سبط النبى أبو الشمقمق أبى

فيعرفه السلطان ويأمر باحضاره الى القصر ، ثم ينشده الشاعر أرجوزته التى تقرب من ثلاثمائة بيت فتقع من المولى الموقع الحسن فيجزل صلته ويرفع منزلته

لقد تعددت الفنون الشعرية والاغراض الادبية بتعدد الادباء . وانتاج كل أديب ، ومن العسير أن أعطى فى هذه العجالة صورة من كل غرض ، وانما حسبى أن أتخذ نموذجا يقاس عليه غيره . وليكن هذا النموذج فى ميدان الغزل والنسيب ذلك الميدان « الطبيعى » للانسان ، والذى يصدر فيه كل شاعر على حسب سجيته ووفق هواه . ولأقتطع شيئا من قصيدة الوزير محمد ابن ادريس المتوفى سنة ١٢٦٤ التى تذكرك بموسيق عبد الوهاب وغنائه وتنسيك نفسك التى قد تكون مثقلة بهموم الحياة :

سحرتك بالطرف الكحيل الساحر وبحسن قد كالقضيب الزاهر

وبغرة كالفجر تحت ذوائب كدجنة فأعجب لحسن باهر

وبنقطة مسكية فى وجنة وردية ذات الأريج العاطر

وبريقها المعسول الا أنه يشفى الحشا من كل داء ضائر
ريق أعز على من نيل المنى وألذ من رشف الرحيق لخاطرى الخ

وهذه قطعة خالدة للأديب أبى عبد الله الشرقى صاحب العلمى مؤلف «الانيس المطرب»:

من لى بها تختال فى حليها كروضة تختال فى زهرها
فبشرها أرحب من بشرها ونشرها أطيب من نشرها
وخدها أبهج من وردها ونورها ألطف من نورها
وقدها أرفع من غصنها ووجهها أبيض من فجرها
العيش والجنة فى وصلها والموت والنيران فى هجرها
عاطيتها راحا مشعشعة كمثل ياقوت على نحرها
راح أراح الأنس فكرى بها من شارة الدنيا ومن شرها
وهى فى مجلس أفراحها كأنها الزباء فى قصرها
لو تسعد الدنيا بزورتها لاصطلع الناس على شكرها

وهى لرقتها تستحق الخلود أيضا تلحينا وغناء

ومما يتفرع من هذا الموطن «شعر الاشارة» الذى يمت بصلة قربى الى باب الغزل والنسيب. ان التصوف من الادب الصميم، فكيف لايكون المتصوفة من أرباب الادب أيضا وهل هناك فرق بين الادباء والمتصوفة الا أن ليلى الاديب مريضة وليلى المتصوف ممرضة! على أنه قد لا يجدى تمريضها مع صبابته شيئا فيفنى فى هواها وتبقى ليلى وحيدة فى هذا الوجود استمع الى قول السيد الحراق

أتت الدجى كى لا يراها رقيبها ويخلص من شر الوشاة حبيبها
فنم بها اشراق نور جمالها وأخبر عنها اذ تضوع طيبها
فوالله لايخلو بها غير عاشق رقيق المعانى فى الامور لبيبها
فنى فبدت فى موضع الوصل وحدها ولما يكن شىء هناك يريبها

ولا أريد الاستشهاد كثيرا فان هذا مما يطول بهذا البحث القصير وأرجو الله أن أكون قد أعطيت صورة مصغرة لحياة الادب فى هذا العصر خاصة وفى العصور السابقة له عامة ، كما أرجو أن أكون قد وفقت فى اعطاء هذه الصورة ولو بعض التوفيق ؟

عبد الله محمد العمرانى

فهرس العدد الثانى من السنة الثالثة عشرة من
صحيفة دار العلوم



